سلسلة نصوص

جان بول سارتر

تأليف آني كوهن سولال
ترجمة د. جورج كتوره

الكتاب

جان بول سارتر

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com رابط بديل

آني كوهن سولال

جان بول سارتر

ترجمة

الدكتور جورج كتوره

دار الكتاب الجديد المتحدة

Original Title:
Jean-Paul Sartre
by **Annie Cohen-Solal**
Copyright © **Presses Universitaires de France**, 2005

جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع دار المطبوعات الجامعية الفرنسية ـ فرنسا

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية عام 2005
في دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في فرنسا

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2008

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2008 إفرنجي

جان بول سارتر

ترجمة الدكتور جورج كتوره

موضوع الكتاب فلسفة
الحجم 11.5 x 17.5 سم

تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
التجليد عادي

ردمك ISBN 9959-29-332-7
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2005/6840

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس.
هاتف 04 75 03 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 75 03 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 96-11 رياض الصلح ـ بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة للدار. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: oeabooks@yahoo.com

مقدّمة المترجم

هذا الكتاب ليس تلخيصاً للسيرة الكبيرة التي وضعتها آني كوهن سولال عن سارتر (Sartre). والتي ترجمت إلى العديد من اللغات، ما عدا العربية. ولذلك يبدو خيار ترجمة هذا الكتاب في هذه السلسلة عملاً جيداً ومشكوراً. فسارتر يأتي في مقدمة الفلاسفة المعاصرين الذين شغلوا أكثر من حيز. إليه يعود الفضل في نشر الوجودية في فرنسا ومنها إلى أنحاء أخرى بعد أن تعرّف إليها في فترة الأسر في ألمانيا، وبعد أن نقل خطوطها ومعالمها إلى بلده ليجعل منها ليس فلسفة وحسب، بل نمط حياة. وفي السياسة سيكون سارتر مع قلة التزامه الحزبي إنساناً سريع التقلب، لكنه واضح الخط. بل إنه بدأ حياته كما نطلع هنا على جانب من سيرته من خط مغاير بل شخصي لم يكتب له النجاح الطويل، لكنه أثّر فيه طيلة حياته.

ولأن واضعة هذا الكتاب قد تعقبت كل المراحل الأولى فهي لم تنسَ أن تبرز خيط، أو خيوط، النشأة الأولى، وبسبب إيمانها النابع بتأثير الطفولة المبكرة على شباب وعلى حياة سارتر. لكن ذلك ليس الأهم، حيث بدأت المؤلفة من الأخير من موقف العالَم المعاصر من سارتر بعد غيابه بسنوات. والموقف هذا يتعدى بلده فرنسا ليصار إلى قياسه في أماكن ومطارح أخرى. فتشير المؤلفة إلى تنقلات سارتر المتعددة في مراحل مراهقته وشبابه، وتشير

إلى طريقة فهمه للفلسفة وكيفية تعليمها. كما تشير أيضاً إلى صداقاته ومعارفه، وتجمع لذلك شهادات نادرة، متعقِّبة الأقارب والأهل والجيران والأساتذة الذين صادقوه معه أو ناصبوه بعضاً من عداء. كما تجمع شهادة طلابه وتلامذته حيث حل معلماً، وحيث حاول إنزال الفلسفة من علياء الكتب إلى عقول الطلاب الذين أعجبوا بطريقة تدريسه.

بعد ذلك تشير الكاتبة إلى مراحل لاحقة من حياته، إلى الحقبة الأميركية وتأثره بالرواية الأميركية ونقل صورها إلى الأدب الفرنسي، وامتهانه كتابة القصص والروايات بعد ذلك، وصولاً إلى المرحلة السياسية النضالية إلى حد ما. وتحوله سفيراً غير معيَّن لفرنسا في أرجاء متعددة من العالم. فسارتر صار الإنسان الذي لا يستقر في مكان إلاّ ويكون على موعد في المكان الآخر لإلقاء محاضرة أو للمشاركة في مهرجان، أو للقاء مناضلين وما شابه. هذا دون أن تنسى الإشارة والإشادة بجهده التأليفي في المجالات المتعددة. لا سيما إطلاقه لمجلة «الأزمنة الحديثة Les Temps Modernes» التي لاقت الصدى العريض والانتشار الواسع.

إلاّ أن السمة الغالبة على هذا الكتاب هي الاهتمام بالجانب السردي لسارتر. إنها رواية حياة بأسلوب موجز وبسيط وسريع إلى حد ما. وفي نقل السيرة تظل الوثائق على جانب من الأهمية. والوثائق هنا متنوعة. كتابات سارتر، علاقاته بالآخرين، ومنهم صديقه اللدود ألبير كامو Albert Camus. وشهادات الشهود، الأهل، الأقرباء، الأساتذة، الطلاب والنقاد. بل الرسائل والمراسلات التي نجدها بكثرة منه وإليه.

وإلى جانب هذا الاهتمام تولي الكاتبة جانباً آخر أهميةً لا

تقل عن الاهتمام بما رصدته في المؤلفات. إنه ولع سارتر بالسينما. وهو الذي شكّلت السينما نقلة نوعية في حياته. إذ دفعته أول الأمر لكتابة السيناريو فأخذته من حقل التعليم المدرسي وأمّنت له استقلالية معيَّنة. بعد ذلك وجد نفسه مستقلاً وانتقل إلى مجالات التأليف في الحقول المتعددة. لكن ولعه بالسينما ظل قائماً، فكان أن عرف السينما الأميركية وأعجب بها ونقل ولعه هذا إلى طلابه في المدارس التي اشتغل فيها.

يصعب علينا اختصار هذا الكتاب على صغره. لكن المؤلفة استطاعت أن تعطينا صورة عن سارتر، كما لو كان يقدم صورته بنفسه.

إن اختصار السيرة الكبيرة بسيرة أصغر لا يضر بجوهر الموضوع، لكنه يجعله بمتناول الجميع. وهذه هي رسالة هذا النوع من الكتب.

تمهيد

«من هو جمهورك؟». سؤال وجّه إلى سارتر ذات يوم. «طلاب، أساتذة، وأناس يهتمون فعلاً بالقراءة، من لهم هذه السيئة»، هذا ما أجاب به.

لقد أحب سارتر بالتأكيد فكرة أن يدخل في سلسلة «ماذا أعرف؟ Que sais-je?»(*)، وهو الذي أسرَّ ذات يوم من شباط 1940 في مذكراته الحميمة عن شطط مشروعه الثقافي: «إنه العالم الذي أريد أن أتملّكه [...] إلا أنه تملّك من نمط خاص: أريد تملّكه بوصفه معرفة [...] وللمعرفة بالنسبة لي معنى سحري للتملّك»[1].

لقد أحبّ سارتر دون شك فكرة الدخول في سلسلة «ماذا أعرف؟»، وأن يجد نفسه مكثفاً في كتاب تلقيني وتوليفي، يمهد لقراءة أعماله بكاملها، وبعرضه كذلك فهو يتيح لجمهور عريض من القراء الدخول في علاقة جدلية على طريقته بالطبع معطياً إياهم وسائل قراءته قبل معارضته أو تجاوزه. وبسؤاله عن ظاهرة القراءة أجاب دون مواربة: «القارئ، هو من يخترعنا ويمد

(*) «ماذا أعرف؟» هي التسمية الفرنسية للسلسلة، ونحن أطلقنا عليها تسمية «نصوص».

أفخاخه الحقيقية مع كلماتنا. إنه فاعل، فهو يتجاوزنا، ونحن من أجل ذلك نكتب».

هذا ما يعني إذن بالنسبة لسارتر، وقد استعيد شاباً في ذكراه المئوية، معنى الدخول في سلسلة «ماذا أعرف؟»، إنها بالنسبة له المناسبة أن ينطلق مرة أخرى في البحث عن جمهور جديد، عن هؤلاء الناس الذين يهتمون فعلاً بالقراءة، الذين لهم هذه السيئة، وأن يتركوا أنفسهم للوقوع في أفخاخهم، وأن نقدم لهم كلماته قبل أن تخسف.

الفصـــل الأول

تيفييه، مونتريال وبرازيليا

تصفية حسابات هنا، وإحالة مُلزمة في أماكن أخرى

في 22 حزيران 2004 وفي المسرح الكبير التابع لجامعة باريس الثامنة تلقى فيلسوفان قادمان من مكان آخر، أنتاناسي موخوس (Antanas Mockus) وكورنيل فيست (Cornel West)، شهادة دكتوراة تقديرية من يد الرئيس بيير لونيل (Pierre Lunel). الأول من جنسية كولومبية، وهو عميد قديم للجامعة وقد صار فيما بعد رئيس بلدية بوغوتا «Bojota»؛ أما الثاني فمن مواليد الولايات المتحدة حيث يقوم بالتدريس في جامعة برنستون Princeton، وهو أحد المفكرين الأشد كاريزماتية بين الجماعة الأفرو - أميركية. في خطابيهما لقبول الشهادة، استند كلاهما إلى سارتر بطريقة طبيعية وضرورية: موخوس انطلاقاً من الترابط الثقافي؛ وفيست انطلاقاً من المرحلة ما بعد الاستعمارية. وهما اتجاهان سبق لسارتر أن مهّد لهما ثم تفكر بهما قبل أي فرد آخر. بالنسبة لهذين الفيلسوفين، كما بالنسبة للعديد من المثقفين في أرجاء العالم، يشكّل سارتر مرجعاً يومياً، أستطيع أن أصفه ربما بـ «بوصلة أخلاقية» لهذه المرحلة. ومع ذلك فالحالة هذه

مختلفة في فرنسا. وإذا كنت قد اخترت أن أفتتح هذا العمل بمشهد من هذا النوع، فذلك لأني غالباً ما تساءلت عن الابتعاد الغريب في تقبل أعمال سارتر في فرنسا وفي خارجها!! وإذا كان قد سُلّط عليها حُرْمٌ عندنا فهي مراجع ملزمة في أماكن أخرى.

في الواقع، عام 1980 وبطلب من ناشر أميركي وبعد عدة أشهر من وفاة سارتر، كنت قد شرعت في مشروع يتناول سيرة سارتر، وهو مشروع لم يكن ليثير حماسة جمهور كبير في فرنسا. تهكم، تصفية حسابات، سكوت مضجر، وضيق... تلك هي المواقف التي غالباً ما صادفناها تجاه سارتر، حتى ليُخيَّل إلينا ما إذا كان يجب استبعاده كلياً، أو «استبداله». «سارتر متهماً»، هذا ما كان نتيجة استقصاء قامت به «Quotidien de Paris» من خلال استفتائها لحوالى خمسة عشر مثقفاً طارحة عليهم السؤال التالي: «ما هي برأيكم الأخطاء السياسية العشرة الأشد خطورة التي اقترفها سارتر؟». والإجابات توالت: لقد خدع سارتر في برلين عام 1933، وفي باريس عام 1944، وفي موسكو عام 1954، وفي كوبا عام 1960، وفي بولونيا ـ بيلنكورت عام 1970. ثم راح كل منهم يتهكم: «سارتر السيّئ»، ذلك الذي لم يظهر أية ردة فعل حين شاهد مرور «الجيش النازي»، ذلك الذي فضل البقاء في باريس بدل الانتقال إلى مناطق الجنوب والانضمام إلى المقاومة الفاعلة، ذلك الذي كتب أن «حرية الصحافة كاملة في الاتحاد السوفياتي»، ذلك الذي مجّد النظام الذي يرأسه كاسترو Castro، أو أيضاً ذلك الذي جثم برفق على برميل مخاطباً عمال مصانع شركة رينو Renault.

لكن ماذا نعني بدقة «بالخطأ» في السياسة؟ وماذا نفهم بمدلول كلمة «خطأ»، إن لم يكن يعني حقيقة دائمة، نهائية أو أفلاطونية؟ لم يحبس سارتر نفسه إطلاقاً في تفسير للعالم. لقد

غيَّر مكانه، لقد حذر، وأبدى ضيقه. فكيف يمكن إذاً وبكل نيّة طيّبة أن ننتزع حق لعب دور الرقيب الاسترجاعي وصولاً لقياس التناسخات التي نعرفها وتمييز النقاط الجيدة؟ وإلى ما توصلنا هذه الطلبية الجسورة، إن لم يكن إلى سارتر «جيّد»، إلى سارتر لا يخطئ أو يتنزه عن أخطائه؟ ولماذا هذا التقسيم العشائري؟ فالحقيقة في السياسة تبدو لي من الناحية العملية ما دأب سارتر للدفاع عنه باستمرار. ألم يكن من ينزع باستمرار، وتجاه كل إجماع وامتثالية، نحو البحث الشخصي، محاولاً التخلص رغم كل شيء من دور الأستاذ في التفكير، هذا الدور الذي بناه الآخرون حوله؟ وهو ما كان نقطة الضعف التي تجرح آنذاك.

«بعد سارتر من؟». هذا هو العنوان الذي وضعته بدورها صحيفة «Le Matin de Paris» قبل أن تقدم صورة عن المفكر الفرنسي الذي يمكن أن يشغل المكانة التي خلت بعد وفاة سارتر مستعرضة أسماء كل من بورديو Bourdieu، دريدا Derrida، ليفي ستروس Levi-Strauss، فوكو Foucault ودوبريه Debray.. وسواهم. كما لو كانت السلطة الرمزية التي احتلها سارتر بعد صدور أعماله الأدبية، ومقالاته ومداخلاته العامة ومواقفه وحدسه والتزاماته، وبعد رفضه للأحداث المأساوية السياسية التي تميز بها القرن العشرون (الحروب النازية، والعنف والاستعمار والتمييز العنصري وسواه) كان كل ذلك حملٌ يمكن نقله إلى أحد أقرانه. ولماذا بعد موت سارتر ظل شبحه يوازي ارتفاع الفكر الفرنسي مشعلاً، وبعد فسحات منتظمة، النقاشات القديمة التي يدعى إليها كما لو كان على رأس مائدة مدعوين؟ وعن ماذا نبحث في هذه الحركة المزدوجة التي تقيده وتحفظه في آن واحد؟

هذه التبعية الغريبة التي ظهرت بعد وفاة سارتر تبدو لي

علامة قوية على عجزنا عن تجاوزه. وينتابني الحدس أن قوة المثقف الفرنسي الكلية على الأمر السياسي كانت بعد وفاته قد تطورت بشكل نهائي، وأن كل النقاشات التي حدثت لم تكن أكثر من عارض. فمعه دفنّا أيضاً كلاً من ڤولتير Voltaire وهيغو Hugo وزولا Zola. فما هو الموقع الذي شغله سارتر والذي لا يمكن شغله بعد وفاته؟ ما هي السلطة التي حاز عليها سارتر والتي لا يمكن بعده استعادتها؟ ولماذا لا يمكننا أن نقبل أنه عبر النقد ونفاد الصبر إنما كان الأمر يدور حول حنين للسلطة؟ ولماذا لا نحاول أن نفهم إلى أي حد يثير هذا العنف ألماً عميقاً، ألماً يصعب تحديده بدقة، لكنه مقلق وموجود، إنها أزمة المثقف ـ النبي وظهور كاريزماتيات جديدة؟ بتحريكنا للأسئلة بهذا الشكل، يخيل إليّ أنه بإمكاننا أن نعيد طرح السؤال مجدداً.

بدورها قامت مجلة لوديبا «Le Débat» بتنظيم ملف شامل: «سارتر بعد خمس سنوات» حيث طلب من العديد من الفلاسفة الإجابة على السؤال: «أين نحن من سارتر، بعد خمس سنوات على وفاته؟». «قلة هم الذين يذكرونه اليوم» كتب الأول، فيما انتقد الثاني «العناد القائم على تمازج الذكاء مع الحماقة» مؤكداً «أنه كاتب لا يعنيني...»، فيما قبل الثالث «أنه قد مرت عدة سنوات لم أفتح فيها كتاباً لسارتر». باختصار: سنوات خمس مرت على وفاته فيما نحن ما نزال نبحث عن البراغيث في شعر سقراط.

تلك هي إذاً الحالة الحزينة التي وُجد فيها المثقفون الفرنسيون بعد السنوات الخمس على وفاة سارتر، الفيلسوف الذي شكّل موضوع استقصائي. أما من جانب الجمهور العريض، فالأمر كان أكثر سوءاً. ففي أحد أيام أيلول من العام 1985، دعيت لتدشين لوحة وضعت لتكريم سارتر في مدينة تيفييه (Thiviers)،

في منطقة بيريغور (Périgord)، حيث ولد والده جان - باتيست Jean-Baptiste، وحيث كان يقضي أياماً من إجازاته.. وكانت المفاجأة أن أرى أن المعارضة لسارتر لم تكن قد انطفأت بعد؛ فالناس يدخلون فرداً فرداً إلى صالة المجلس البلدي لتوقيع كتبهم بعد القداس ثم يتفرقون بسرعة، وحين عدت إلى المحطة كانت الستائر قد سحبت كلها، وكل صار في بيته.. «إننا لا نكرم سوقياً مثله»، ذلك كان صوت أحدهم، وقد وصل عبر التلفون دون الإفصاح عن هويته.

في الوقت نفسه كنت أُكثر من تحركاتي، وأستقصي متخذة درب رحلاته، ملاقية الشهود، وكان غالب الأحيان ينتابني شعور بالاعتراف تجاهه وبالدَّيْن له، وهذا ما صدمني: ففي جزر الأنتيل «Antilles» على سبيل المثال حيث تعرفت على ما للصحافة من دور أثارته بعد وفاته، نجد صحيفة في المرتنيك «Grif an tè» تكتب (Sartre un mal nèg) ما يعني تقريباً: «شخصية فريدة»، «نموذجاً جيداً». وبعد صدور كتابي وبعد الجولة التي قمت بها إلى البلدان التي ترجم إلى لغاتها، لاحظت أن الكاريزما التي نسبت إلى سارتر ظلت هي إياها، كما هو الآن الشعور بالدَّيْن تجاهه ما زال شعوراً لم يمس. ثمة لحظتان تطبعان بالنسبة لي هذه السنوات الأربع من الجولة الأدبية: الأولى كانت في مونتريال في نوفمبر 1985؛ والثانية في برازيليا، سبتمبر 1986. والنصوص التي أستعيدها فيما يلي، وقد كتبتها بعد أسابيع من طباعة سيرتي، قد تكون مثيرة للفرح:

مونتريال، الخميس الرابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 1985. أمس، وفي المطعم أعطاني الكاتب أندريه ماجور (André Major) مفتاحاً أولاً: «بسبب سارتر طردت من مدرسة

Eudistes عام 1955، وبسببه أيضاً لم أستطع الدخول عند اليسوعيين؛ لقد أتيت على ذكر (الأبواب المقفلة) Huis clos في مذكراتي الحميمة... أما بالنسبة لسارتر فالشهادات هنا كثيرة ويا للتوافق! لقد حرّم اسمه في التعليم الديني على مدى عشرين سنة. وكان المسيح الدجال، الملحد. أمس في أوتاوا واليوم في كيبيك، وجدت سارتر كما لو كان ضمن الكلوفورم، كما كان يجب أن يكون في باريس قبل عشرين سنة. وحتى أزعج الكهنة. يروي أحد إداريي TNM: كنت أتنزه وكتابه، «الموت في الروح تحت إبطي La Mort dans l'Âme Sous le Bras»! أما الكيس كليموف Alexis Klimoff، فيشرح الآن، «كانت محاضراتي عن فلسفة سارتر ممنوعة بقرار من أسقف Trois Rivières عام 1954، كان الأمر مشابهاً كما لو كنت أعطي محاضرات في الصور الخلاعية البورنوغرافيا». أما المثقفون هنا فقد احتفظوا لسارتر بحيوية تجعل منه شخصاً أساسياً، إنه أسطورة ضرورية، أسطورة فكر تحرري.

أما المقابلة التي خصني بها بعد عدة أشهر من ذلك الرئيس Sarney في برازيليا، وبحضور وزير الثقافة Celso Furtado، الذي حظي باستقبال سارتر أثناء رحلاته المعروفة عام 1960 وكان ما زال طالباً شاباً، فقد كانت تكريماً رسمياً وتعبيراً عن وفاء لدَيْن. لقد ظلت هذه المقابلة الرئاسية في برازيليا، كما الاستقبال في مونتريال، المقابلَ، لما حصل من إهانات في Thiviers. فعلى مدى السنوات الأربع من الجولة التي أعقبت صدور سيرتي، حرص كل من الكتّاب في البلدان التي زرتها على الكلام وعلى الشهادة وعلى تكريم الأعمال التي وضعها سارتر: في البرازيل هذا ما فعله جورج أمادو (Jorge Amado)؛ وفي الأرجنتين أرنستو ساباتو (Ernesto Sabato)؛ وفي البيرو ماريو فارغاس يُوسا

(Mario Vargas Uosa)؛ وفي الولايات المتحدة أرثر ميللر (Arthur Miller) وسوزان سونتاج (Susan Sontag) وإدوارد سعيد (Edward Said)، وفي اليابان كنزابورو أوي (Kenzaburo Oé)؛ وفي إنكلترا جورج شتاينر (George Steiner) وسلمان رشدي (Salman Rushdie)؛ وفي إسرائيل عاموس الون (Amos Elon) ودافيد غروسمان (David Grossman)؛ وفي بولونيا آدم ميشنيك (Adam Michnik)؛ وفي ألمانيا، هانس ماغنوس أنزنبرغر (Hans Magnus Ensenzberger) ويورغن هابرماس (Jürgen Habermass)؛ وفي السويد جان ميردال (Jan Plyrdal)؛ وفي إيطاليا أمبرتو إيكو (Umberto Eco) وألبرتو مورافيا (Alberto Moravia). ثمة عضّ على الأسنان! لقد حصل ذلك بالطبع وكان من جانب بعض كتّاب أوروبا الشرقية وبعض البلدان العربية. وفي الأيام الأخيرة «كان اعترافه بإسرائيل ما حمله على كل ما تبقى». هذا ما أعلنه الفلسطيني نافذ نزال (Nafez Nazzal)، أستاذ السياسة.. ومع كل ذلك فإن الوضع يبقى إيجابياً على الجملة.

الفصـــل الثانـــي

نحو مقاربة شاملة للمشروع السارتري

لقد حيرني ذلك التشوّش الفرنسي. فمن جانبي لم أشعر قط بالحاجة لتصفية حساباتي مع سارتر، لم أحاول إطلاقاً أن أقابل «سارتر الجيد»، «بسارتر السيّئ»، وكان اهتمامي منصبّاً على «سارتر بأكمله» بما فيه من تناقضات، ومن سذاجات وشجاعة وحماسة وكرم وجموح. لقد بقيت على قناعتي بوجوب مقاربة الأثر السارتري بوصفه كلاً، لأستطيع أن أفهم قوانين عمله، وأن أقرأ فيه قواعد السلوك السارتري وأن أستقي منه المفاتيح اللازمة. ولكن كيف يمكن الإمساك بأثر كهذا، على غزارته وتغيراته، وهو الأثر الذي تطرق إلى كل الميادين الكتابية (رواية، قصة، فلسفة، مسرح، سينما، سيرة ذاتية، السير، المقالة النقدية، التحقيق الصحفي، والأغنية)، الأثر الذي توجه إلى كل الجماهير، من الجمهور العريض إلى الجامعيين، وفي كل البلدان، والذي يخيل لذلك أنه عصي على كل مُمسك.

ثمة ظاهرة غير منتظرة حدثت هذه السنوات، ما جعل مقاربتي الكلية لآثار سارتر كلها أكثر حساسية بعد وفاته. فالآثار التي تركها وإن كانت متقطعة قد بدأت تحيا حياة جديدة، خاصة

بعد طباعة المخطوطات غير المكتملة، أو المنسية، أو التي أعطاها أو التي ضاعت، ومنها:

Carnets de la drôle de guerre, Lettres au castor et à quelques autres, cahier pour une morale, Vérité et existence, Critique de la raison dialectique 2.

ثم تبعها الآثار الرومانسية بطبعة Pléiade، وÉcrits de jeunesse، Le Scenario Freud، وهي لائحة يجب أن نضم إليها أيضاً La Cérénomie des Adieux لسيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir، وكان النص قد أرفق بمقابلة طويلة مع سارتر. خمسة كتب في ثلاثة أعوام، هذا ما أشار إليه بدقة ميشال كونتا Michel Contat في جريدة «Le Monde».

مع شعور بالإعجاب لهذه الإنتاجية، التي تدفع إلى السؤال: كيف يعود لكاتب ميّت أن ينجح وأن يكون أكثر خصباً مما كان في حياته؟

أما كتابه «دفاتر عن الحرب الغريبة» فقد أعجبني بشكل خاص من خلال العمل المضني القائم على التحليل الشخصي والشفافية، وهذا ما كان مشدوداً إليه يومياً في مذكرات حميمة كتبها عام 1939 – 1940. إنه نص لا توازيَ فيه، بعض الصفحات تحمل على الملل، والبعض الآخر عظيم، وهي توحي بالعمق بالطريقة التي عمل بها وفكر بها. «لقد حصل لي وبعد حصول أخطاء في أحد السجلات أن أعترف بذلك بإرادتي، وأن أزداد تعجباً بعد ذلك إذ رأيت محدثي رغم هذا الاعتراف ما زال يريدني. خطر لي أن أقول له: «ولكن انظر، هذا ليس أنا، وهذا ليس الأمر نفسه». وبالطبع إن ما جعل نظريتي في الحرية جد واضحة، وهي طريقة في الهروب من الذات، وفي كل لحظة[2]. ينتابنا شعور

للدخول معه في نوع من الحميمية، في حوار لا تنازل فيه، ولا عذر بين سارتر وسارتر، ومن خلاله فهو يحاكم نفسه، ينتقد نفسه، ويقسمها إلى حقب، يسكن نفسه وينتقدها بشكل صارم، يعيد ويعاقب نفسه مجدداً من خلال قدرة مدهشة على النقد الذاتي وطرح الأسئلة، كما لو كانت الحقيقة والأصالة ممكنة دائماً وفي كل الأوقات. في سياق هذه الحرب الغريبة غير المنتظرة كانت الكتابة بالنسبة لسارتر المحشور مع غيره ضمن فرقة لمراقبة الأحوال الجوية فسحة للتنفس، للحضور في العالم، وكانت بمثابة نبض له.

رغم كل هذه العقبات التي واجهتني في فهم الآثار الشاملة عند سارتر، كان عليَّ أن أتجاوز أولى العقبات، وهي على ما يخيل إليَّ عقبة الانعزال. فإذا ما استعجلت لإقامة تصنيف يعتمد الأنواع ـ الرواية، المقالات النقدية، المسرح، الفلسفة، المقالات السياسية، الصحافة ـ فسرعان ما سيتبين لي أني قد أهملت، أو تركت جانباً، سيناريوهات الأفلام، الأغاني، المذكرات، المقدمات، الرثاء، الرحلات، الحياة الخاصة، كتابات الشباب.. إلخ. وإذا حاولنا عزل مرحلة تاريخية ـ سارتر الهامشي في أعوام 1930، أو سارتر في عزّ مجده في سنوات 1945، والرحالة الكبير سنوات 1960، وسارتر الملك لير «Lear» في أعوام إصابته بالعمى، فإنه سرعان ما يتبين لنا أن المرحلة التي اخترنا إنما هي في حوار دائم مع مرحلة سبقت، أو مع المرحلة التي تلي. وإذا ما آثرنا التطلع إلى جهة الحقبات السياسية الكبرى في القرن العشرين: أعوام 1930 وما أعقبها من مظاهرات شعبية، أو أعوام 1945 واصطفاف المثقفين في صفوف الحزب الشيوعي، فسرعان ما سيتبين لنا أيضاً أن سارتر إذا كان قد آثر الاقتران ببعض رهانات العصر،

فهو قد اتبعها بنوع من الرقص الذي يتوازى مع عصره. فسارتر 1930 على سبيل المثال، الهامشي، الفردي واللامسيَّس، لم يبد أي اهتمام بالأممية البروليتارية التي أظهرها أوائل الشيوعيين الفرنسيين، شأن صديقه نيزان، بل انضم بشكل خاص وعبر تصرفاته إلى مواقف بعض السرياليين دون أن يلتقي بهم ودون أن يلاقي منهم اعترافاً به. وبالفعل ومن أجل محاولة فهم كل العلامات السارترية لم يكن عليَّ أن آخذ كل الآثار المكتوبة بعين الاعتبار، بل المشروع السارتري، هذا التنظيم المتماسك من طرفه الأول إلى الأخير، إنه ثقافة مضادة لليومي، والممارسة فيه هي التي تحدد عينياً المشروع الفلسفي.

كل معالجة قطاعية لأثره ستبقى ناقصة دون شك، إذ لا تضم بعض الأبعاد الأساسية، مثل تشابك الأطروحات أو ارتباط مختلف الأنواع. في مقابلة له مع مادلين شابسال Madeleine Chapsal عام 1960 قدّم سارتر بعض الآثار التي تسمح بفهم صورة أعماله وأفكاره بشكل أفضل، إذ تعطي صورة خاصة عن أثره. «منذ خمس عشرة سنة وأنا أبحث عن شيء. يتعلق الأمر إذا أردت بإعطاء أساس سياسي للأنثربولوجيا. وهذا ما زال مستمراً. مثل سرطان عام؛ كانت تأتيني الأفكار: لم أكن أعرف آنذاك ماذا أفعل بها، حينها كنت أضعها في أي مكان: في الكتاب الذي كان يصدف أني أقوم بتأليفه. حالياً انتهى الأمر. لقد صارت الأفكار أكثر تنظيماً، أكتب عملاً يخلصني منها. نقد العقل الجدلي... لا أشعر بالحاجة لاستطرادات أقوم بها في كتبي كما لو كنت ألهث كل الوقت إثر فلسفتي. فهي ستودع في نعوش صغيرة، وسأكون هادئاً وفارغاً، كما بعد كتابة الوجود والعدم، والفراغ... وحين يكون الكتاب عن الأنثربولوجيا خلفي، سأستطيع

الكتابة حول أي موضوع. أما بالنسبة للفلسفة فأنا أقوم بذلك لنفسي، بعض المراجع العقلية... وحين يصار لوضع أعمال غير فلسفية مع اجترار الفلسفة - وكما أفعل ذلك منذ هذا العقد من السنين - فإن أقل صفحة، وأقل نثر إنما يشكوان من الفتوقات. في الوقت الأخير، وحين كنت أشعر بالفتق تحت ريشتي كنت أفضّل التوقف. ولهذا أقول إن كل هذه الكتب قد عانيت من عذابها»[3].

في إشاراته إلى استعارات عضوية، وتقديمه لانبثاق أفكاره كما لو كانت مرضاً فعلياً، وتوصيفه لتتابع الأطروحات بين الفلسفة والمسرح والمقالات الأخرى النقدية، فإن هذا النص الجميل يُبرز كيف لا يمكن التطرق إلى أعمال سارتر إلا بوصفها عضواً حياً، كما لو كانت كلاً متكاملاً. وحدها المقاربة الشاملة التي تربط كل الأنواع التي تَشَكَّلَ منها الأثر السارتري، بما في ذلك التدخلات السياسية، التي تأخذ أيضاً التصرفات السياسية بعين الاعتبار، وحياة الكاتب العاطفية واستقبال أثره في فرنسا وفي الخارج، وعوامل التداخل بين الإنتاج والتلقي.. كل ذلك سيسمح إلى جانب المقاربة بمقاربة فينومينولوجية بإعادة تكوين المنطق الداخلي الذي يحكم العمل السارتري.

الفصـــل الثالـــث

سيرة تكوُّن الأبله أو الخيالي بوصفه تحديداً مفصلياً

لنأخذ على سبيل المثال مشروعه «أبله العائلة» «L'Idiot de la Famille»، النص الذي وضعه عن فلوبير Flaubert، وهو من أواخر كتبه. هذا الأثر الرائع الضخم، لم يكتمل، وكان من ثلاثة أجزاء و2802 صفحة! وحتى يتسنى لنا فهم تكوُّنه يجب العودة إلى العام 1939، أثناء الحرب الغريبة. «بالعودة إلى قراءة مراسلاته، في طبعة Charpentier السيئة، يشرح سارتر: انتابني شعور بوجوب تصفية الحساب معه وكان عليَّ من أجل ذلك أن افهمه بشكل جيد، ثم تحوَّلت كراهيتي الأولى إلى قدرة على تفهمه، الموقف الوحيد الذي يساعدني على الفهم»[4]. كان فلوبير بدايةً مدركاً كما لو كان تتمة «للخيالي» منذ العام 1940، ثم أعلن عنه في «الوجود والعدم» عند نهاية الفصل المتعلق بالتحليل النفسي الوجودي، عام 1943، ثم في كتابه «ما هو الأدب «Qu'est-ce que la Littérature 1945، ثم تطور بعد ذلك بتأثير من روجيه غارودي (Roger Garaudy) في ثلاثة أشهر وفي عشرة دفاتر حوالى العام 1954، ثم تطور بعد عام من ذلك بوحي من

الناشر والمحلل النفسي ج. ب. بونتاليس (J.-B. Pontalis) في مخطوط من 1000 صفحة ترك لوقت طويل قبل أن يستعاد عام 1963، فيصاغ مجدداً ومراراً في صيغ متعددة، حتى إن الجزأين الأولين لم ينشرا إلا عام 1971 والثالث عام 1972.. ثم أهمل نشر الجزأين الرابع والخامس، وقد تركا نهائياً بسبب العمى الذي أصاب سارتر.

هكذا ولد «أبله العائلة» على مدى عقود ثلاثة، وهو يقوم على قواعد نظرية مختلفة تمتد من «الخيالي» «الوجود والعدم» و«مسألة المنهج» و«نقد العقل الجدلي»، ما سمح لسارتر أن «يكتب كل ما هنالك من قول يمكن قوله حول فلوبير». مشروع ضخم وجنوني، يحاول أن يفهم «الخيالي» كتحديد مفصلي للشخصية، ويحاول أن يصف عصاب الولد غوستاف Gustave، ثم يحاول أن يشرح أثر سلبيته كولد على رسالته ككاتب؛ إنه مشروع يدركه الكاتب كما لو كان مَعْبَراً لكل التساؤلات، لكل الطرق التي حاول سابقاً تجريبها، «أي مختلف التوسيطات والوسائل التي تساعدنا على تعميق معرفتنا بالرجال [...] وعلى المزج بين التحليل النفسي والماركسية»[5]؛ مشروع استحواذي، ذلك أنه يمتد على مدى أربعين سنة، يعود سارتر فيها إلى الاهتمامات التي راودته في سنوات دراسته في معهد المعلمين العالي حين اختار موضوعاً لدراساته العليا معالجة الموضوع التالي: «الصورة في الحياة النفسية: الدور والطبيعة».

مشروع مؤجّل، أيضاً، ويعود ذلك للتيارات المضادة في الأبحاث التي سادت عصره؛ فمنذ منتصف سنوات 1960، ومع ظهور الأفكار البنيوية وظهور مفكرين ماركسيين جدد، صارت الفكرة السارترية فكرة هامشية، بل خيل إنها صائرة إلى الأفول

في العالم الثقافي. رغم ذلك كله ازدادت حماسة سارتر في التصدي رأساً لرأس لفلوبير، مطبقاً عليه طريقته الشمولية بطريقة مطلقة وبمساعدة الأدوية وبمساعدة القريبين منه. «لماذا الإصرار على فلوبير؟»، هذا السؤال الذي ردده النقاد. «إنه يمثل بالنسبة لي نقيض تصوري الخاص عن الأدب: التخلي عن الالتزام الكلي في البحث عن مثال شكلي ليس مثالياً على الإطلاق. لقد بدأ فلوبير يسحرني بالتحديد لأني رأيت فيه ومن كل وجهات النظر واحداً آخر نقيضاً لي. كنت أسأل نفسي كيف يكون رجل كهذا ممكناً». أو أيضاً: «لا بدّ من الاحتكاك بمن يخاصمني»[6].

بالدخول في الأثر السارتري عبر «بوابة فلوبير» أي من النهاية، نصل بسرعة إلى شبكة معقدة من المراسلات تحثنا على العودة بالزمن، ولندرك أن الحوار مع فلوبير قد بدأت جذوره منذ زمن طويل، طويل جداً، يعود إلى طفولة سارتر. بل ربما لأن «أبله العائلة» يمثل نهاية تصفية الحسابات الفعلية مع هذا الذي مثّل دائماً فرنسا البرجوازية والعالمة، فرنسا القرن التاسع عشر: فجده كان شفايتزر (Schweitzer). علاقة صعبة وصراعية بين الابن الصغير وبين المفضل، الجد، المربي الحقيقي، الكريم، الفائق البلاغة، الذي كان الراعي الوحيد للولد الموهوب جداً طيلة السنوات العشر الأولى من حياته. للتخلص من إملاءات الجد ولوقائعية العالم ولحبه الشديد، قام الولد، يتيم الأب، بالتزود آنذاك برسالة ضرورية ومستحيلة: لقد بدأ كاتباً منذ الثامنة من عمره، مع قناعة بأن ذلك كان ولادة ـ ذاتية. «قام جدي» كما شرح ذلك سارتر في «الكلمات» «بقذفي في الأدب من خلال العناية التي اتبعها في تخليصي من ذلك! لدرجة أنه قد يحصل لي حتى الآن، أن أتساءل حين يكون مزاجي سيئاً، إن لم أكن قد أمضيت العديد من الأيام والليالي مغطى

بالعديد من قصاصات الورق مملوءة بحبري، طارحاً على الأرض العديد من الكتب التي لا يتمناها أي شخص، بهدف وحيد وأمل مجنون هو إرضاء جدي»[7].

فإذا كان صدور «الكلمات Les Mots» عام 1963، وبحسب عباراته «وداعاً للأدب»[8]، فإن سارتر يقول لنا: إن «الكلمات» قد وضعت بهدف «الإجابة على السؤال نفسه حول الدراسات عن جينيه (Genet) وفلوبير: كيف يصبح الرجل أحداً يكتب، أحداً يريد التحدث عن الخيالي؟»[9]. هكذا يتراوح الأثر السارتري بين ارتداد إلى عدم نهاية، بين إعادة صياغة نظرية وبين برهنة عملية، بين حوار دائم مع مبدعين آخرين، من زملاء له يتقدمون من بودلير (Baudelaire)، دراسة «غير كافية، بل يمكن القول: سيئة»[10] إلى «سان جينيه (Saint Genet)، الكوميدي والشهيد» وفيها «نجد دراسة حول تكيف جينيه بأحداث تاريخه الموضوعي وغير الكافي، غير الكافي إطلاقاً»[11]، ومن جينيه إلى مالارميه، ومن مالارميه (Mallarmé) إلى تينتوريه (Tintoret)، ومن تينتوريه إلى فلوبير. هكذا كان سارتر يعمل، عارضاً أمام كل منهم تناقضاته، وحدوده الخاصة، وما تخلى عنه، وتقلباته، شفافيته وديناميته، متقبلاً في نهاية الأمر «أن الكُتّاب الأحياء يخفون أنفسهم»، وأنه «حين يشرع المرء في الكتابة فإنه كمن يتقنّع»[12].

«ألم تتفهم وإن قليلاً أن يقوم أحدهم بمزاولة العمل نفسه، عمل الإيضاح الذي تمارسه أنت على فلوبير؟» هذا سؤال طرح عليه ذات يوم.

«على العكس، سأكون مسروراً» أجاب سارتر. و«ككل كاتب، أتنحى. وأنا بدوري رجل عام وباستطاعة الناس أن يفكروا فيه ما حلا لهم، حتى لو كان ذلك قاسياً...».

«ألا تخشى حكم الأجيال القادمة؟».

«إطلاقاً. لا لأني على قناعة بأنه سيكون حكماً جيداً. بل إني أتمنى أن يحصل. ولم يخطر على بالي أن أقوم بإتلاف رسائل أو وثائق تتعلق بحياتي الشخصية. كل ذلك سيعرف. من الأفضل أن يساعد ذلك أن أكون شفافاً أمام الأجيال اللاحقة ـ إذا ما أبدت اهتماماً بي ـ كما هو فلوبير في نظري الآن»[13].

الفصـــل الرابـــع

الخط البياني لإنتاج غير نمطي

سارتر المدهش، وخطه المهني يسير بطريقة فريدة، وبابتعاد مطلق عن خط سير معاصريه. ما هو إذاً مفتاح هذه المهمة التي عاد الشغف الأدبي الذي كان عنده في طفولته ليعود وتتفتح أزهاره إبان سني كهولته؟ كيف يمكن لسيرورات الانبثاق هذه أن تجد مكانها؟ ما هو نمط العلاقة التي أقامها سارتر بعصره عبر سياق تتابع فيه مراحل الطلاق، والانسجام، ثم الطلاق مجدداً؟ كيف سيتسنى له أن يتجاوز الطرق المسدودة وأن يخرج من الطرق المسدودة؟ كيف تتقدم هذه الفكرة الآخذة دائماً بالصيرورة، إلا أنها وفي الوقت نفسه تظل تدور حول الأسئلة عينها: وظيفة الأدب، ووضعية الفنان أو المثقف، وانطباع الرمزي في الواقعي؟ إذا حاولنا أن نحقب الإنتاج السارتري بإمكاننا تمثيله في شكل خط بياني يبدأ ببطء ليبلغ قمته إبان السنوات التي شهدت مجد سارتر (1945 ـ 1960)، ليعود ويقع في مرحلة أقل عمومية حيث كان الهمّ السياسي قد أخذ مكان العودة إلى اهتمام ثقافي كان مؤثّراً في سنوات 1940.

نعود أولاً إلى التكوين البطيء والصبور لمهمة الكاتب،

لعذابات رجل متورط في بدايات «مجد» متأخر. إن فكرة العمل على العرضية كانت في بال سارتر منذ العام 1926، إبان سنواته الدراسية في معهد المعلمين العالي: ومع ذلك فقد استغرق الأمر اثنتي عشرة سنة من العمل المكمل حتى يستطيع أن يعاود «عمله على العرضية» ويعيد كتابته، ويعيد الانشغال به قبل أن يطبع هذا العمل بشكله النهائي: «الغثيان». وإذا كان سارتر قد استطاع بعد ذلك الدخول في عالم النشر واستطاع أن يكتب إلى سيمون دي بوفوار «أنه يمشي على الشارع ككاتب»[14]، فلم يكن ذلك إلا بعد سيرورة خاصة وصعبة، استفاد فيها من تدخلات العديدين من القريبين إليه: بول نيزان Paul Nizan، سيمون دي بوفوار، جاك لورنت ـ بوست Jacques-Laurent Bost وسواهم، وبعد أن رضي أن يخضع كتابه لسلسلة من أعمال الرقابة الفعلية بالنسبة للعديد من المقاطع الجوفاء جداً في متن النص.

في الثلاثين من عمره، كان سارتر وريث تقليد فرنسي نخبوي.. ولدٌ تربّى بين الكتب، وفي مهد معهد المعلمين العالي الناعم؛ ثم أصبح مدرّساً للفلسفة في ليسيه هافر Havre مستعيضاً بالحفلات الموسيقية عن فشله في النشر وضد اختناق الريف الفرنسي، المائل إلى الفوضى، المعزول والفردي، وراح ينظر بعين لامبالية للاستعراضات الكبرى تقوم بها أحزاب اليسار، مستمعاً بسخرية إلى آمال الشيوعيين الفرنسيين الذين أسرتهم التجربة السوفياتية. انطوت هذه المرحلة الأولى من إنتاجه قبل نهاية الحرب العالمية الثانية على أعمال أدبية، فلسفية، درامية ومقالات في النقد الأدبي والتحقيقات. وقد ضمّنها وصفاً يائساً للعالم، من وجهة نظر رجل لاملتزم، هامشي. ثم قدّم نفسه بصورة الرائد، السابق لعصره والمصلح، مطلقاً ضرباته باتجاه

الثقافات الغريبة، مطوراً مفاهيم أساسية، مثل نظرية العرض، وسوء النية، ونظرة الغير الآسرة.

كانت الحرب العالمية الثانية صدمة للمؤلف، الذي عاش حتى تاريخه في أوساط محافظة: «لقد هزّت ما هو اجتماعي في حياته». مأساة الحرب ومعسكر المعتقلين قد وضعاه إزاء أنماط جديدة من الرفاق: ففي ستالاغ XII D Stalag في مدينة تريف Trèves، كان يعلّم الفلسفة، ويكتب وينتج قطعاً مسرحية، باريونا (Bariona)؛ ثم تحرر وانطلق مع جماعة صغيرة من المقاومة، الاشتراكية والحرية، ولم يدم ذلك إلا بضعة أشهر. وعلى وقع أولى كتاباته، أنجز عمله الفلسفي «الوجود والعدم» «L'Être et le Néant» (صدر عام 1943). وكمؤلف روايات (راح يعمل في الجزءين الأولين من «طرق الحرية» اللذين نشرا عام 1945) وكاتب دراما (أصدر «الذباب» 1943، «الأبواب المغلقة» 1944)، إلى جانب ذلك شرع في كتابة تجربتين جديدتين: كتابة السيناريو، بتمويل من شركة «Pathé» (ما أتاح له مباشرة أن يترك التدريس)، ثم العمل محققاً صحافياً بتحفيز من ألبير كامو الذي عرض عليه أن يصبح «شاهداً على عصره» بالكتابة إلى «Combat» ثم إلى الفيغارو le Figaro.

وبعد أن قام بتغطية أيام التحرير في باريس، أرسل سارتر إلى الولايات المتحدة لمدة خمسة أشهر. فالولايات المتحدة هي البلد الذي يشغل باله منذ مدة طويلة لأنه بلد حامل للحداثة، وهذا ما سيضع سارتر في طور جديد مع عصره. والعمل على الأرض الذي أتاح له السفر إلى نيويورك وهوليوود وتكساس والمكسيك ـ الجديدة، قد قدّم له في الوقت نفسه موضوع بحث عريض وحماسي: الولايات المتحدة الأميركية. ثم إن هذه الرحلة قد أظهرت سارتر المناضل الأخلاقي، الذي يلتزم للمرة الأولى بأمر

اجتماعي: الاضطهاد العنصري الذي كان السود في هذا البلد ضحاياه. وإبان هذه الرحلة بالذات بدأت صورة سارتر المناضل من أجل العالم الثالث بعد سنوات 1960 بالظهور.

بعودته من الولايات المتحدة أصبح سارتر أحد فاعلي نهضة الصحافة الفرنسية وأحد إنتاجاتها: «مواقف Situation» و«الحرية Libertés» و «الالتزام Engagement» صارت بالنسبة له إصدارات تعبّر عن هذه الحقبة. «خدمة الأدب ببث دم جديد فيه» هذا ما جاء في تقديمه لـ «الأزمنة الحديثة Les Temps Modernes». «تقبل كل المخطوطات أياً كان مصدرها. لا يجب أن ينسينا الالتزام في الأدب بأية طريقة من الطرق [...] خدمة المجموعة بإعطائها الأدب الذي يناسبها»[15]. ثم يأتي بعد ذلك الأحكام ومواقف السلطة لرجل يأتي في مركز متقدم. «فالكاتب هو في موقف مع عصره: ولكل قول عداواته، وكل سكوت أيضاً يجعل فلوبير وغونكور Goncourt مسؤولين»[16]. ثم إنه نظم مشروعاً شاملاً وشعبياً لتقصي أحوال العالم. «إذا كانت الحقيقة واحدة، فلا تبحث عنها في أي مكان بل في كل مكان»[17].

منذ شهر أيلول/سبتمبر 1945 ظهر سارتر، يكتب على طاولة ما بعد الحرب البيضاء «من أجل عصره»، عبر إنتاج خصب إلى درجة لا تصدق، وعبر حوار حقيقي مع الجمهور؛ يمكن الحكم على ذلك عبر لائحة (غير مكتملة) من إصداراته. فمنذ عام 1945 حتى عام 1963، أصدر: «الوجودية فلسفة إنسانية L'Existentialisme est un Humanisme»، «طرق الحرية Les Chemins de la Liberté»، مجلة «الأزمنة الحديثة Les Temps Modernes»، «مواقف Situations» الأجزاء I إلى III، «موتى بلا قبور Morts sans Sépulture»، «المومس المحترمة La Putain Respectueuse»، «تأملات في المسألة اليهودية Réflexions sur la Question Juive»، «بودلير Baudelaire»،

«أرفيوس الأسود Orphée Noir»، «انتهت الألعاب Les Jeux sont Faits»، «الأيدي القذرة Les Mains Sales»، «التشابك L'Engrenage»، «مالارميه Mallarmé»، «مقابلات حول السياسة Entretiens sur la Politique»، «الشيطان والإله الطيب Le Diable et le Bon Dieu»، «سان جينيه الكوميدي والشهيد Saint Genet Comédien et Martyr»، «قضية هنري مارتين L'Affaire de Henri Martin»، «Kean»، «Nekrassov»، «محتجزو ألتونا Les Séquestrés d'Altons»، «نقد العقل الجدلي Critique de la Raison Dialectique»، «الكلمات Les Mots»... ثم شارك في كتابة العديد من المقدمات للعديد من الكتّاب الفرنسيين، فلم يرفض إطلاقاً مساندة الكتّاب الشباب الذين كانوا يتوجهون إليه بالنداء.

كيف يمكن تفسير هذا التأثير الذي عرفه فكر سارتر عام 1945. كيف يمكن وصف هذا التقطيع للإنتاجات الأدبية وتحويلها إلى ذرات؟ ربما كان بإمكاننا أن نعطي فكرة تقول: إنه تخيل جمهوراً كلياً، وهي فكرة لم تخطر على بال كاتب قبله في هذا العصر الذي كان يشهد طفرة في نظم التواصل. قام سارتر بتقسيم الرسائل تبعاً للجمهور المختلف الذي يتوجه إليه، محاولاً تطوير عمليات فعلية، مثل المحاضرة الشهيرة «الوجودية فلسفة إنسانية» التي ألقاها في 20 أكتوبر 1945 في نادي «Maintenant» والتي اعتبرت حدثاً إعلامياً في البلاد في تلك السنوات. وبالتزامن مع محاضرات العودة المدرسية 1945 ظهر العدد الأول من «الأزمنة الحديثة»، والجزءان الأولان من «طرق الحرية»، كما توالى عرض الأبواب المغلقة، وبالتراكض اسم «الوجودية» أصبح اسم سارتر اسماً يتم تداوله يومياً في الصحافة (سواء كان بفعل الإعجاب أو الكراهية). الوجودية! لا أعلم ما هي. هكذا كان يجيب حين يسأل، «فلسفتي هي فلسفة وجود صارمة».

مع أن فكر سارتر قد ارتبط بمكان ما مع نمط حياة بوهيمي، مع تقليد الحياة في المقاهي وطغمتها («zazous» الفتيان الذين ينظر إليهم كمهمشين ومخربين)، والأصل في ذلك نظام فكر فلسفي جاف والدخول إليه صعب. في فرنسا الزراعية وبالكاد خرجت لتوها من سنوات الاحتلال، خلقت الموجة السارترية مع ثقافتها البديلة التي تستخدم نماذج مستعارة من حضارات غريبة، والتي تتحدث عن الحداثة وعن الجاز وعن الحب خارج مؤسسة الزواج، خلقت تعقيدات غير مباشرة مع شبيبة - «Saint-Germain-des-Près»، التي راحت تكوّن نمط حياة على صورة العائلة السارترية. وفي اللحظة التي تمّ فيها تحول المجتمع الباريسي الفلاحي في هذا الحي من باريس، كان سارتر قد تحول إلى رهينة وإلى كفيل.

إن المشروع السارتري قد تمّ تقديمه تبعاً لبنية هرمية منظمة بفضل الفلسفة التي تنظم كل شيء في القمة تبعاً لمناطق تأثير خمس، تضمنت: المقالات النقدية، المحاضرات، المسرح والرواية، الراديو والسينما، وأخيراً الصحافة. استخدم هذا المشروع «وسطاء وصل»، أكثر شباباً، وقبولاً، بعض الممثلين المعروفين من قبل الجمهور مثل جوليت غريكو Juliette Gréco، بوريس فيان Boris Vian، فرنسوا باربيه François Perrier (الذي مثّل شخصية هيغو في الأيدي القذرة)، بيير برسير Pierre Brasseur، جان فيلار Jean Vilar وماريا كازاريس Maria Casarès (الذين مثّلوا على التوالي شخصيات غوتس Goetz، هينريس وهيلدا Heinrich et Hilda في الشيطان والإله الطيب)، سيرج ريجياني Serge Reggiani (فرانز Franz في «محتجزو التونا») أو أيضاً صوفيا لورين Sophia Lauren (شخصية يوها في فيلم

مستقى من المسرحية نفسها). عملياً، لقد لامس هؤلاء الجمهور بأكمله، من الجمهور العالم كلياً حتى الجمهور الواسع مازجاً بذلك بين كل الأجيال. استعان نفوذ الفكر السارتري باستخدامه لمكان معيّن: حي سان ـ جرمان دي بري Saint-Germain-des-Près، مع ما فيه من مقاهٍ ومن فسحة ومن برج كنيسة، بل أكثر من ذلك، لقد ارتبط هذا النفوذ بأسطورة مكان أصبح فيه سارتر مثقفه العضوي. فمنذ هذه الفترة صار هذا الفكر يرتقب تعديل التوازنات العالمية، ويبشر بانتهاء المشروعية الإمبريالية الأوروبية، ويترقب بروز هويات الشعوب المستعمرة، كل ذلك من ضمن رؤية عالم يختلف كلياً عن عالم ما قبل الحرب.

بين 1952 و1956 دخل سارتر وعلى مدى أربع سنوات رفقة درب مع الحزب الشيوعي الفرنسي، وخرج منها متحولاً. بدءاً من عام 1959 كانت مواقفه السياسية إبان حرب الجزائر قد أدخلته في مسار معيّن: إذ هاجم السلطة الديغولية، معبّراً في مقالاته الساخرة عن رفضه بل وتهشيمه لسياسة فرنسا الاستعمارية، بل هو قد أثار دراما نفسية وطنية إذ رفض التعذيب داعياً إلى العصيان دافعاً الحكم إلى الحافة عبر صراع لا هوادة فيه مع الجنرال ديغول de Gaulle. إبان هذه السنوات اكتسب سارتر وضعية من لا يجوز المس بهم، فدعي من قبل رؤساء العالم كافة، حيث لعب في العالم دور سفير غير منتدب، بل صار ممثلاً لفرنسا من خلال مهمة سياسية أخلاقية، لم يستطع حتى هذا التاريخ أي مؤلف أن يجاريه فيها. بل أكثر من ذلك، وإبان شغله لوظيفته الإعلامية مديراً لـ «الأزمنة الحديثة»، ومن خلال كتاباته الجدالية ورحلاته الكبرى، أصبح سارتر الناطق باسم العالم الثالث، والمتحدث الأقوى باسم المهمشين والمنفيين. مع طباعة كتابه «الكلمات» عام 1963 والذي

شكّل انقلاباً في الكتابة إذ كان «وداعاً للأدب»، كما كان يتصوره حتى ذلك الوقت، ثم كان العام التالي ورفضه لجائزة نوبل Nobel في الآداب، وانخراطه في معارضة جذرية لحرب فيتنام وقيامه بمهمة رئيس محكمة راسل Russell ضد جرائم الحرب الأميركية. لقد ابتعد سارتر أكثر فأكثر عن نهج المؤلف النموذجي.

وأخيراً، إنها مرحلة سارتر الأخير، الذي مهّدنا له أعلاه بعمله المحموم على أثر واحد، الأخير، حول فلوبير، فلوبير خاصة. إنها تجريب في نوع آخر من الكتابة. الكتابة الصحافية مع خلق وكالة أنباء صحافية ثم جريدة يومية «Libération»؛ إنه القبول بدور الحامي لمختلف الجماعات الماوية التي تهددها السلطة، ثم كان العمى أخيراً والسنوات الأخيرة التي أمضاها بالعمل من خلال سكرتيره بيير فيكتور Pierre Victor (الاسم المستعار بني ليفي Benny Lévy)، على اهتمامات غير عادية مثل الدين وبطريقة غير معلنة.

عبر مختلف مفاصل هذه المسيرة المدهشة، استمرت بعض الاهتمامات من بداية حياته المهنية حتى آخرها: فبعد مرحلة التعرف إلى نمط البحث والمغامرة - من أجل الفلسفة بقطبها الألماني؛ والرواية بقطبها الأميركي -، وبعد الحشرية لمن يعيش للسينما والموسيقى والفنون التشكيلية، وبعد ضرورة الرحلة، وبعد الشغف بالحديث والجديد، وبعد الانهمام بثقافة الغير وتصفية الحساب مع فرنسا الاستعمارية أو أميركا الإمبريالية، بعد كل ذلك كانت العودة إلى فرنسا فلوبير القرن التاسع عشر، ومعها كما رأينا أعلاه لم ينقطع سارتر عن شق طرق جديدة. إن الأمر الذي يبدو لي حالياً جديراً بالدراسة، لا يرتبط بالمرحلة التي عرف فيها سارتر مجده، المرحلة التي توحد فيها مع عصره، بل

هي مرحلة سارتر الأولى أو مرحلته الأخيرة، مرحلة كاتب في عزلة اجتماعية، منعزل يبحث وهو في تنافر معها.

مع العودة إلى الوراء، تبرز بعض التيمات، مطلقة أنواراً جديدة، وفارضة تماسكاً حقيقياً بين المواقف السيئة وأعمال هذه المسيرة الفريدة. وحين أقدم سارتر في الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر 1964 على الإمساك بورقة مربعة الشكل ليطلب من لجنة جائزة نوبل عدم ذكر اسمه في حال وقعت التسمية عليه من أجل جائزة نوبل للآداب، قام بعضهم بتحليل هذه الحركة معتبرين إياها نوعاً من الإخراج المسرحي. أما الواقع فكان في مكان آخر تماماً. إن رفض جائزة نوبل لأسباب شخصية كما أعلن علناً، كما رفض قبل عدة سنوات استلام وسام جوقة الشرف. إن هذا الرفض لم يكن يعني سوى الرفض العنيد للتوقف في مسيرته؟ إن الأسباب الخاصة التي نستطيع إعادة تعميدها تحت اسم «الأسباب السارترية» ألم تكن هذه مكتوبة ضمناً في النصوص الأولى من فلسفة سارتر؟ «مع نظر الآخر، يفلت الموقف مني، أو ولأستخدم عبارة سخيفة وإن كانت توحي بدقة عن أفكاري، لا أعود أنا سيد الموقف [...] إن ظهور الغير يضفي على الموقف مظهراً لم أكن لأريده، ولا أنا سيده، بل هو موقف يفلت مني لأنه من حيث المبدأ هو موقف من أجل الآخر»[18].

ماذا أعرف عن سارتر إذاً؟ إذا أخذنا لحظات من مسيرته بإمكاننا استعادة المراسلات الجديدة، وإظهار النقاط، وإيضاح المسائل الحساسة في تنظيم الحسابات الوطنية.. وربما أيضاً، وعند الحاجة، إضافة بعض بندولات إلى الساعة.

الفصـــل الخامـــس

الإلزاس وبريفورد أو رفض القديم

عام 1963 أصدر سارتر «الكلمات»، وهو كتاب هام بدأ السباق عبر رواية حديثة لقصص حب ثلاث، قصص حب لم تكتمل: قصته مع أجداده لأمه، وقصته مع أجداده لأبيه وأخيراً قصته مع أهله. تندرج القصتان الأوليان أو هما تغوصان في الاختلاق، والنفاق والعُرف الاجتماعي. أما القصة الثالثة فهي تتوقف بوضوح بعد عدة أشهر من بدئها، يأتي ذلك بعد وفاة والده. هكذا يبرز الكاتب نفسه في هذا السيناريو اللافت والمدهش، وهو سيناريو مؤثر مليء بالمهارة الفنية في الكتابة، شاعري. إنه رواية السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حياته.

لدى قراءتي «الكلمات» تكوّن عندي حدس بأن سارتر قد استند إلى عائلته لأمه: آل شفايتزر Schweitzer، نوع من المسؤولية الوحيدة الجانب حول ذهانه الخاص ككاتب، مشيراً بشكل خاص إلى جده. لقد قررت آنذاك وجود عنصر لا بدّ من العمل على حله، وقد ذهبت إلى حد المغامرة في مخاصمة سارتر في تركيب تاريخه الخاص. وقد وجدت نفسي مندفعة في دفع باب هذه الجهة من تيفييه (Thiviers) التي تركها هو في الظل، وأن أقوّم مدى انغراسه الريفي الفرنسي، واستعيد

المكانة الاجتماعية لعائلة سارتر، وكما أعيد بناء تطور عائلته، وأن أوضح مكانة هذا «الصبي» في وسطه.

حين يقتحم فكر سارتر فرنسا المدينة، يأخذ تأمله حينها أشكالاً حاسمة، بل عنيفة، وأحياناً يأخذ شكل الضغينة. أولاً ضد فرنسا المقاطعة التي أشار إليها في «الغثيان» بالموهبة التي يعلمها كل الناس. «إنه الأحد خلف أحواض السفن، على طول الشاطئ، قريباً من محطة البضائع وحول المدينة بأسرها نجد عنابر فارغة وآلات ثابتة في السواد [...] في كل الضواحي، بين جدران المصانع التي لا نهاية لها، نجد فتيات طويلات القامة سوداوات اللون وقد شرعن بالمشي، إنهن يتقدمن ببطء نحو مركز المدينة. لاستقبالهن اتخذت الشوارع مظهر أيام الهياج الشعبي: كل المحلات باستثناء ما كان منها في شارع «Tournebride» قد أنزلت ستائرها الحديدية. عما قريب ستقتحم هذه الأعمدة السوداء هذه الشوارع التي تجعل الموتى [...]، عما قريب ستشهد فرنسا أيام الآحاد ولادتها، بين المخازن المقفلة والأبواب المغلقة»[19].

بعمل استقصائي شمل تيفييه Thiviers وباريغي Périgueux، وبعد العثور على أصول أرشيف على جانب من الأهمية كان في حوزة عمة سارتر السيدة ليناس (Lannes)، وبعد العودة إلى ملفات والده جان باتيست سارتر Jean-Baptiste Sartre في أرشيف مدرسة البوليتكنيك Polytechnique، وأرشيف البحرية ووزارة الدفاع، استطعت أن أعيد تركيب العلاقات المعقدة بين العائلتين اللتين ارتبطتا ببعضهما، من هذا الارتباط كان كاتبنا. ولانه اختار عدم الكلام عن ذلك، فقد قمت مطولاً بدراسة الوثائق التي كان مصدرها جنوب شرق فرنسا. وما توصلت إليه كان في الواقع

شهادة على الانحلال المطلق لعائلة برجوازية شديدة الغنى والازدهار في القرن التاسع عشر، لكنها شهدت بعد ذلك نضوب الرأسمال بل شهدت وبأقل من عشرين سنة اختفاء كل العناصر المنتجة، أو التي يمكن أن تكون منتجة، والتي إليها تعود أصول جان ـ بول سارتر؛ من هؤلاء، عمه الكابيتان فريدريك ليناس (Frédéric Lannes) الذي توفي في الحرب بين 1914 و1918؛ والده جان باتيست (Jean Baptiste) اختفى في أيلول/سبتمبر 1906، بمرض معدٍ في كوشينشي (Cochinchine) [في فيتنام]، أما جده الدكتور إيمارد سارتر (Eymard Sartre) فتوفي في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1913؛ وجدته ألودي (Élodie) توفيت عام 1919، وابنة عمه آني (Annie) توفيت عن عمر يناهز التاسعة عشرة عام 1925، وعمه جوزف (Joseph)، «المشرف عليه» توفي عام 1927.

لنفتح على سبيل المثال صفحة المراسلات التي حصلت في تشرين الأول 1913 بعد وفاة جده، الدكتور إيمارد سارتر، وهو المنحدر من عائلة متواضعة من فلاحي Puyfebert، ثم أصبح طبيباً في ريف تيفييه وزوجاً لألودي شافوا Élodie Chavoix ابنة صيدلي المدينة. إنها شبكة من الأعيان المحليين تظهر لنا، مع عدد من العائلات الأرستقراطية المختلفة، أرباب البنوك، كتاب العدل، أعضاء في مؤسسات وطرق دينية ـ أسقف كاتدرائية باريغي (Périgueux)، والمشرفة العامة على راهبات القلب المقدس في أوبازين «Aubazine» ـ، رئيس المحكمة المدنية، قاضي السلام، والنائب، رئيس المجلس العام في دوردون (Dordogne)، وعضو مجلس دوردون، عضو أكاديمية الطب، كل الكهنة المحليين، في مساحة جغرافية تمتد من تيفييه إلى باريغي، ليموج Limoges، بوردو Bordeaux، منطقة الكدريز Corrèze ومنطقة لوت Lot.

بين عائلة شفايتزر وسارتر ثمة تعارض يشبه التعارض بين فرنسا كاثوليكية وفرنسا بروتستانتية، بين فرنسا مدنية وأخرى ريفية، فرنسا التقدمية، فرنسا المربين من أصول ألمانية، وفرنسا الراديكالية المستقلة زراعياً. هذا التحدر من الجانب الأبوي والذي على ما يظهر لم يكن لسارتر ما يكفيه من الوقت ليقيم عليه أبحاثه، قد تضمن رجال سياسة على جانب من الانفتاح والجذرية، أشخاصاً علمانيين وجمهوريين، مثل جده الذي كان طبيب الريف الذي حاول انتهاك جزر الجمود والعمل على تنوير السكان في الضيع الصغيرة والأبراج المحيطة الذين يتكلمون لهجة محلية ويظلون مع ذلك تحت تأثير السحر، ناقلاً إليهم الطب وأصول الصحة العامة والثقافة[20].

لننظر أيضاً إلى الفروق بين الأخوين، صغير العائلة جان - باتيست والد الكاتب، والأخ البكر جوزف عمه أخ أبيه. فمسيرة جان - باتيست تبدو لنا مسيرة ابن موهوب، طموح، مغامر، حائز على بكالوريا مزدوجة في الآداب والعلوم، خريج البوليتكنيك الذي اختار مهنته في البحرية؛ ومسيرة جوزف، مسيرة رجل محلي بخيل، ونحيل. والاختلاف في قدرهما يبدو بشكل لافت حين نقرأ المراسلة التي تبادلها الأخوان والتي وجدناها في خزنة السيدة ليناس، عمة سارتر في باريغي. «على ما هو متوافق عليه» - هذا ما كتبه العم جوزف الوصي على الكاتب بلغة كتاب العدل، مضيفاً «إني أتمنى أن تأخذ السيدة مانسي Mancy والسيدة ليناس الأثاث الذي يعجبها، ما عدا الساعة التي أود الاحتفاظ بها، إلى جانب الطاولة الموجودة في الغرفة نفسها مع الساعة التي أريد الاحتفاظ بها لقاعة الطعام عندي، وإذا ما أخذت السيدة ليناس المقعد الجميل في غرفة الاستقبال فلتترك لنا خيار المقعد الموجود في غرفة الوالدة، أو الموجود في غرفتها مع الكرسي المرتفع في

قاعة الطعام. علماً أن السيدة ليناس عندها مثل هذه الكرسي في باريغي. ولتأخذ ما تريد بعد ذلك: جان - باتيست سارتر. (هكذا)»[21]. بعد سبع عشرة سنة يقوم جان - باتيست وكان شاباً في البوليتكنيك بإرسال رسالة إلى أخته يمتدح فيها المركز الذي وصل إليه بالارتباط بما له من موهبة: «أختي الصغيرة الطيبة، ها أنا أفي بوعدي وسأحدثك عن الحفلة الراقصة يوم السبت. لقد كانت حفلة رائعة، شديدة التنظيم [...] كان العديد من المدعوين بزي موحد، وبأزياء موحدة جميلة، مثل ضباط ومهندسي البحرية. وكان بين الحضور وزيران من الطلاب القدامى، كافايناك Cavaignac وغوياس Guiyesse. وعند الساعة الحادية عشرة أعلن مجيء السيدة فور (Faure) [...] أخوك X سارتر»[22].

إن مراجعة المراسلات بين آن - ماري Anne-Marie والدة «سارتر» وأنسبائها بعد وفاة جان - باتيست تظهر الإزعاجات المؤثّرة بين أفراد عدة يتحدرون من عالمين مختلفين، وتظهر مساومتهما الصعبة، وموقع الرهينة الذي كان ابنهم فيه آنذاك وهو ما بين السابعة إلى الحادية عشر من عمره. وبالفعل، وبعد وفاة جد سارتر، كان العم جوزف الذي أصبح الوصي على الولد والذي، وبهذه الصفة، كان له صفة حق النفقة عند جان باتيست على ولده. إزعاجات ذات طابع قضائي وإداري، صارت بالوقت نفسه ذات طبيعة مالية حين رفض جوزف سارتر إعطاء شك إلى آن - ماري. إن التدخلات المختلفة التي أعلنتها أمام أصدقاء زوجها تفصح عن الصعوبات الحقيقية التي تعرضت لها وسط هذا التمازج العائلي والثقافي المعاند. وبعد زواجها ثانية من جوزف مانسي Joseph Mancy عام 1917 استعادت حق الوصاية على ولدها.

أتاحت لي هذه الأوراق أن أعود للنصوص وأن أعطي لها قراءة غنية. هكذا تبدو لنا بوفيل (Bouville) في «الغثيان» كما لو كانت مكاناً ثانياً يرمز إلى تيفييه أكثر مما يرمز إلى هافر كما كان الاعتقاد سائداً. كما أن المعلومات الدقيقة حول التحدر من جانب الأب تساعدنا كثيراً على فهم الإغراءات الكثيرة التي كانت في صلب الأسئلة المثارة حول «أبله العائلة». هكذا تبدو مقاربة النصوص مقاربة مفتوحة، خاصة فيما يتعلق بالطريقة المبتكرة جداً والتي يعمد فيها سارتر لمساومة تحديداته الاجتماعية ورفضه لفرنسا الريفية التي يعرفها جيداً. إن تقديم هذا البلد الشديد التفكر، بلد الأعيان الريفيين، فرنسا الأرض الزراعية التي واجهت صعوبات في التحديث بعد الحرب العالمية الأولى، هذا البلد كان موضع تحليل المؤرخ أوجين ڤيبر (Eugen Weber) في كتابه «Peasants into Frenchmen»[23]. إن كراهية هذا «الجانب من تيفييه» والذي لم يجد تعبيراً مباشراً له من قبل سارتر، فهي كراهية لم تنطفئ واقعاً على الإطلاق من جانبه. إن الرفض السارتري للجذور كان سبباً لبروز فلسفة الحرية، وتقديم الإنسان المفرد بشكل ما قبلي، ولبروز أخلاقية القطيعة. فالكاتب الذي هو سارتر سيجد نفسه وإن جزئياً نتاج فرنسا الأعيان الزراعيين التي لم يقف عن مهاجمتها وقلبها. هذه المادة ما زالت تأخذنا إلى المقالة الشديدة الحدة[24] التي كتبها سارتر ونشرها عام 1939 بعنوان: «فرنسوا مورياك François Mauriac والحرية» في مجلة «La Nouvelle Revue Française»[25] مهاجماً مورياك دون شك بوصفه هذا الممثل الأدبي لهذه البرجوازية في الجنوب الشرقي من البلاد.

وفي «Carnets de la Drôle de Guerre» نجد نصاً رائعاً يستعيد فيه سارتر صدى هذه الكراهية لما هو ريفي: حيث كان

سارتر على الجبهة في الشرق فهو يروي لنا نتيجة إجلاء السكان في الإلزاس واللورين نحو الجنوب الشرقي. «من الظواهر الأكثر إثارة للجدل في هذه الحرب التقنية كان النقل المنهجي لأهل الإلزاس... لقد تمّ إرسالهم عند القرويين عمال البناء، آخر الناس، المتأخرين، البليدين، المتعطشين للربح، والبؤساء. هؤلاء الإلزاسيون الذين ما زالوا مبهورين بذكرى ثقافاتهم المنهجية والمشغولة، وذكرى منازلهم الجميلة قد وقعوا في هذا الريف، في هذه المدن الوسخة، عند هؤلاء الناس المشاكسين والقبيحين، المتسخين في معظمهم [...] كانت قواعد النظافة عندهم مما يثير الصدمة في هذه المدن الصغيرة مثل تيفييه، حيث نجد ومنذ اثنتي عشرة سنة، القاذورات المنزلية والبراز تصب في الأماكن القذرة. يبقى أن النتيجة من ذلك كله ستكون واضحة: كل هؤلاء الإلزاسيين الذين يكتبون لبلدهم يصفون هؤلاء القرويين بالمتوحشين [...] من جانبهم وبردة فعل يعامل القرويون أهل الإلزاس كما لو كانوا من الألمان. ودون عداوة خاصة على ما يظهر»[26].

في هذا النص غير المعروف جداً نجد أحداً عمره 34 سنة يكتب بتوترات لم تتوقف أبداً. إنها آن - ماري شفايتزر التي وصلت إلى تيفييه. آن - ماري شفايتزر تحكم على أنسبائها وعلى مواطنيها الغريبين عن ثقافتها. بالتأكيد، أبدى سارتر حساسية قوية تجاه هذا النمط من المواجهة، ولذا قام بتنحيتها طيلة فترة عمله كاتباً. فالموقف هذا يجب وضعه في علاقته مع حقده على ما يسميه «إيديولوجيات الانطواء» التي أشار إليها لاحقاً في «مسألة المنهج» حين تطرق إلى ياسبرز Jaspers. «إيديولوجية الانطواء هذه تعبّر بوضوح كما عبّرت بالأمس عن موقف ألمانيا

عنيدة متشبثة برأيها بعد هزيمتين، وعن موقف بعض البرجوازية الأوروبية التي تريد تبرير الامتيازات بأرستقراطية في النفس، والتي تريد أن تهرب من موضوعيتها إلى ذاتية حادة وأن تعجب بحاضر فائق الأوصاف حتى لا ترى مستقبلها. من الناحية الفلسفية تعتبر هذه الفكرة الرخوة والماكرة مجرد استمرار في الحياة، وهي لا تقدم فائدة يرجى منها»[27].

لاحقاً، ومن خلال المحاولات المتعددة التي قام بها سارتر للتفكر في الحديث، وللتخلص من أطر الجامعة الشديدة التقليد، وللبحث في الثقافات الأخرى عن عودة للأصالة وعن خصب جديد ومن أجل إبطال السلوكات الخائفة والتابو في التاريخ الفرنسي الجمعي، حينها سنشعر بوقع هذا التوتر بين الإلزاس Alsace وبريغور Périgord وما كان له من تأثير على المؤلف.

الفصـــل الســـادس

الأداة الفلسفية الكُليّة القدرة

من قراءة «الكلمات»، ومن خلال عدم الانسجام الزمني (الكرونولوجي) بحجة تنظيم خاضع للسيطرة، في إمكاننا أن نكشف نزعة تهدف إلى تشويش آثار تاريخها الخاص، وكأن الكاتب قد جهد ليبقى ذاتاً مهما كلف الأمر، وأن يطارد من يلحقون به. لو حاولنا أن نفهم في أية لحظة من مسيرته تمكن سارتر من مراقبة صورته الخاصة، وتمكن أيضاً من أن يصبح سارتر الذي أصبحه، وفي أية لحظة اختار أن يأخذ أداة الفلسفة أداة كلية القدرة وأداة تمكّن من تملّك العالم، ومن لعب دور الوريث المدمر الذي لن ينفصل عنه إطلاقاً، فإننا سنجد ذلك منذ وقت مبكر منذ وجوده في معهد المعلمين العالي في آذار من العام 1925، وحينها لم يكن قد بلغ العشرين من عمره.

أواسط سنوات 1920 حين دخل سارتر معهد المعلمين العالي في شارع أولم، كان المعهد ما زال يعاني آثار حرب 1914: قلة تنظيم في الحفاظ على النظام التقليدي، تحرك بين الطلاب، المشاكسين في العودة إلى الصفوف بعد تجربة الحياة في الخنادق، غالباً ما تنطبق عليهم أعراض الأولاد الذين لا آباء لهم،

الذين يحاولون خلق أنفسهم بأنفسهم[28]. وإذا ما حاولنا استعادة تحليلات دانيال ليندنبرغ Daniel Lindenberg حول هذه «اليوتوبيات في أوساط طلاب معهد المعلمين العالي والتي تعود جيلاً بعد جيل»، فكيف سنرى إلى خصوصية وإلى وضعية سارتر في أوساط دورة 1924؟ فبفضل عدد الساعات الطويلة التي لا عد لها والتي قضاها بين رفاقه في معهد المعلمين العالي، وبفضل صورهم، ورسائلهم ومذكراتهم الحميمة، وذكرياتهم، واستعداداتهم، بفضل ذلك كله حاولت إعادة تكوين الوسط الجامعي ما بين الحربين، كما حاولت أن أعيد تأليف المكانة التي شغلها سارتر بطريقة دقيقة.

بمراجعة العديد من النقاط نجد توافقاً في العديد من الشهادات: إذ يبدو سارتر وسط جماعة المعهد في تلك الحقبة من دراساته في السنوات الأخيرة من تنشئته، يبدو فرداً ناضجاً قبل الأوان، وقد كوّن لنفسه رؤية شديدة للعالم، يبدو شخصياً يستثير الإعجاب بفضل ما له من «امتياز كبير» جون بابيو (Jean Baillou)، كما يلفت الانتباه «بقوة علمه، وبجرأته وبقدرته العقلية» جورج غونغيلهم (Georges Canguilhem) وبكاريزماتيته: «لقد كانت له مجموعته، ثمة فئة صغيرة تكوكبت حوله» أولفيه لاكومب (Olivier Lacombe)، وبقوة صفاته «لقد تكوّن كلياً؛ لقد أراد أن يكون كاتباً ولم يفكر بشيء عدا ذلك» آرمون بيرار (Armand Bérard)، وبنزواته: «سارتر كان مضحكاً، لم يكن جدياً، كنا نتكل في كل شيء على نيزان» هنري غولامين (Henri Guillemin)، بفرحه في الحياة والعيش: «كان يتمتع بالحبور وبصوت جميل كنا نسمعه في الممر إذ يغني ورأسه تحت حنفية المياه» روبير ليكو (Robert Lucot)، وبمزاجه: «سارتر ونيزان كانا مضحكين، لقد كانا

الاثنين الوحيدين القادرين على إضحاك والدي» روبير - لويس فاغنر (Robert-Louis Wagner)، شديد المزاح: جورج غونغيلهم (Georges Canguilhem)، كان أصيلاً، «كان له لغته السارترية، التي تقوم على استخدام أسلوب احتفالي مستعار من مدام دي ساغير de Ségur، حتى لو أراد أن يقول أشياء تافهة، إذ يقوم بذلك لا بهدف أن يصدم المستمع بل بهدف مفاجأته» رينيه فريدي (René Frédet). كل شيء كان يوحي بشغفه بالأدب: «ثمة أسطورة تترافق مع رواية سارتر. الجميع يتكلمون عنها وهم يعرفون أكثر أو أقل عما يجري داخلها» جون بابيو (Jean Baillou)، بالنسبة للسينما: «كان يتحدث عنها بطريقة تثير الانتباه وبموهبة من يريد أن يجعلك تكتشف فيلماً عبقرياً، في صالة تقع في عمق الدوار العشرين» رينيه فريدي (René Frédet).

كان سارتر شديد السعي لتطوير فكرة أصيلة تجمع كل الحقول التي يتصدى لها، إذ أظهر ومنذ سن الثامنة عشرة أنه طويل الباع في علم النفس والفلسفة والأدب وعلم الجمال، كما أظهر رسوخاً قوياً في مقولاته الفكرية: «كل أسبوع، كل شهر، كانت له نظرية جديدة، كان يطلعني عليها وكنا نتناقش فيها» ريمون آرون (Raymond Aron). تقوم قوة سارتر على امتلاكه لمشروع جمالي قوي يجعل مما عداه أداة، بل من الآخرين أيضاً أداة له. فالفلسفة بالنسبة له أداة لفهم الذات، كما هي في الوقت نفسه أداة إنتاج أدبي، وهذا ما أكده هو بعد عدة سنوات. «منذ اللحظة التي عرفت فيها ما هي الفلسفة، بدا لي طبيعياً أن افترضها، أو أفرضها في الكاتب»[29].

عام 1928 أخفق سارتر في الامتحان الخطي للتأهل لتدريس الفلسفة أثناء أداء مباراته الأولى. إنه اللقاء الأول بين الذين

يمسكون بالشرعية الثقافية وبين أحد أكثرهم لمعاناً، وأحد وارثيهم الذي لم يرد، بل لم يعرف أن يساوم معهم. «كانت مسابقة تاريخ الفلسفة قد تناولت موضوعاً في المقارنة بين أرسطو Aristote وأوغست كونت Auguste Comte. أما مسابقة سارتر فكانت فضيحة. فال (Wahl) كان يقول: إنها مسابقة غير جيدة» ريمون آرون (Raymond Aron). «إن سقوطه هو علامة على عدم تفهم اللجنة» موريس دي كونديلاك (Maurice de Gandillac). ثم كانت السنة التالية وحلّ سارتر في المرتبة الأولى، ما يجعلنا ندرك صعوبة موقفه النقدي والخلاف بالمقارنة مع النظام المؤسساتي. «حين كان عمري 20 سنة، يكتب سارتر فيما بعد، كان الجدل مرعباً، حتى إن هيغل Hegel كان مجهولاً من قبلنا [...] خلافاً لذلك كان يصار إلى تعليمنا منطق أرسطو والمنطق الرياضي»[30].

كان دخول سارتر عالم الفلسفة قد تمّ مباشرة تحت رعاية خيبة الأمل. والشعور هذا كان يعم غالبية الطلاب أمام المؤسسة الفلسفية الفرنسية في سنوات ما بين الحربين. «لقد تكوّن لدينا، نحن والآخرون، الشعور بأننا عرفنا الدرك الأدنى في تدريس الفلسفة في فرنسا. وقد كان ذلك فيما نعتقد، نتيجة مباشرة لحرب 1914. لم يكن عندنا عن الفلسفة الألمانية (وعن كتابات فرويد Freud بشكل خاص) إلا شذرات بسيطة. فقد كان هاملين (Hamelin)، معروفاً عندنا أكثر من هيغل. وقد قرر سارتر أن يسير بسرعة مزدوجة حتى يسد هذا التأخر» (René Aillet): «لم يكن سارتر ليهتم كثيراً بالفلسفة الجامعية الفرنسية، أو بأساتذة مثل برونشفيغ Brunschvicg، أو لالاند Lalande، وقد كان معانداً لأساتذة السوربون Sorbone. لم يكن هؤلاء الناس مضحكين، وكان

بينهم نماذج فقيرة، جورج غونغيلهم (Georges Canguilhem)؟ «كان سارتر ونيزان Nizan يجدان (Bouglé) شديد الوضوح، وكانا شديدي الاهتمام بمحاضرات دلاكروا (Delacroix) وديماس (Dumas) في علم النفس» جورج ليفرون (Georges Lefranc). في عالم الفلسفة الموزع بين شخصيتين مسيطرتين برغسون Bergson من جهة، وبرونشفيغ من جهة ثانية، أظهر سارتر قطيعة مزدوجة. إذ ثار ضد عقلانية برونشفيغ باسم الرومانسية، متعرضاً لصوفية برغسون باسم الواقعية. بالفعل، فإن سارتر لا يتعرف إلى نفسه، ولن يتعرف إطلاقاً في العلموية الوضعية من أوغست كونت Auguste Comte حتى لوسيان هير Lucien Herr. بل هو يبحث عن إلهامه إلى جانب برغسون. أفكار عن الإبداعية وعن الحرية تطور موقفاً يصعب البقاء عليه، فهو موقف لا يمكن أن يكون روحانياً ولا وضعياً، بل يأخذ بفلسفة حرية علمانية بشكل كلي، إنها برغسونية يسارية. فخلال المرحلة الأولى من حياته الثقافية، كلها تقريباً، دخل سارتر الفلسفة من قناة علم النفس، مخصصاً ساعات عدة في مراقبة المرضى في مستشفى «Sainte-Anne». وعلى مراحل، كان يعود لذلك لاحقاً. «إن فكرتي عن الذاتية وعقلانيتي، يكتب لاحقاً، هي فكرة ستتعزز وستتخلص من هزالها. وبالفعل، فأنا اكتشفت الجنون في مستشفى «Sainte-Anne»، كما اكتشفت المجتمعات البدائية»[31].

في وقت كانت فيه الفلسفة الفرنسية تغوص في مؤسسة ترفض كل إحالة إلى ثقافات أخرى (وبخاصة الانغلاق على الفلسفة الألمانية)[32]، أدرك الطلاب أنه كان يصار لمنعهم من إعادة طرح أي تطور أو بحث أو تواصل، بل أي انفتاح على ما يمكن لتقاليد فلسفية أخرى أن تحمل إليهم. وسط هذا الجيل من

طلاب معهد المعلمين العالي الذين هزتهم طموحات عفوية من أجل الوصول إلى أشكال تبرير أكاديمية، في هذا الوسط بدأت شيئاً بعد شيء فكرة وجود الفلسفة في مكان آخر، وأنه لا بدّ من استخدام كل وسائل الهدم الممكنة للاستزادة من مصادر التقاليد الأخرى. طرح سارتر الشاب ومنذ وقت مبكر مسألة المؤسسة، وقد اعتقد أن الجامعة الفرنسية طوق تخضع الضرورة الفلسفية إلى سيطرة الاستراتيجيات الجامعية والسياسية: ولا يمكن إعادة إحياء الفلسفة وإظهار قوة الفكر، إلا بالقطيعة مع هذا التقليد.

ألا يُعتبر سارتر آخر مثل على عالم تكون فيه الفلسفة، باستنادها إلى مؤسستها وإلى كهنتها، قد لعبت دور القالب القوي والمشروعة اجتماعياً، محتفظة بقوة رمزية في الاستحواذ على العالم الثقافي؟ ألم يكن سارتر وهو الخارج من قمة هذا الهرم والمزوّد بالأداة الفلسفية، الأداة الأعلى، وهو الذي طبّقها على كافة حقول الإنتاج الثقافي، وهو الذي جعلنا نؤمن بهذا بخلود هذه القوة الكُليّة؟

الفصـــل السابـــع

الوريـث المـدمـر

كل الشهادات التي أطلقها زملاؤه في معهد المعلمين العالي تعود بنا إلى سلوكه وسط المجموعة: التمرد على السلطة. التمرد، السخرية، البسالة، وهذه الإرادة بمقاتلة السلطة القائمة، التي أظهرها سارتر على الدوام، إن ذلك كله قد ظهر فعلاً في سنوات 1925.

انتمى معظم طلاب معهد المعلمين العالي المسيّسين إلى مجموعة ما: مجموعة الاشتراكيين، مجموعة الشيوعيين، مجموعة «أهل السلم» أو أيضاً مجموعة «فالوا Valois». «في مجموعة الاشتراكيين كنا حوالى خمسة عشر عضواً: منهم آرون (Aron)، ليفرون (Lefranc)، ليبيل (Lebail)، بابيو (Baillou)، بيريت (Peret)، بيغي (Péguy)، غويون (Guyon)، هرلند (Herland)، دايكسون (Deixonne)، وبروسّوديه (Broussaudier)، أحد محركي اليسار الاشتراكي. وكنا من مناصري المنطقة الخامسة في SFIO إميل ديلافيناي (Émile Delavenay)؛ أما الشيوعيون فكان في صفوفهم بروهات (Bruhat)، غونيو (Cogniot) وآخرون، وأنا كنت متعاطفاً معهم بيار فيلار (Pierre Vilar)؛ أما جماعة أهل السلم فكانت جماعة

تألفت من طلاب ألان (Alain). لقد كانوا جماعة تتصرف بطريقة نيتشوية من أجل تحميس عدد من الأشخاص، وقد اضطهدوا العديد من الأشخاص [...] لقد تصرفوا كأوغاد، وكانت مواقفهم مواقف اضطهادية حقيقية» رينيه فريدي (René Frédet). هذه الجماعة المسيّسة والتي ظلت جماعة تسلطية طيلة فترة زمنية معيّنة كان غونغيلهم أحد رؤسائها وأحد «أكثر المحركين لها»، لقد كان أحد مسالمي معهد المعلمين العالي. تجاه هؤلاء الذين يندرجون في شرعية اجتماعية والذين كان لهم مشروع انصهار اجتماعي «لابيل وأنا كنا الوحيدين اللذين يعرفان أنهما يقومان بعمل سياسي احترافي» جورج ليفرون (Georges Lefranc). أما سارتر فكان نشازاً: «لقد كان فوضوياً بشكل عفوي» ريمون آرون (Raymond Aron)؛ «كان سارتر شكاكاً» موريس دو كونديلاك (Maurice de Gandillac)؛ «لقد ظل طيلة حياته طفولياً من الناحية السياسية؛ بكل الأحوال لقد كان صفراً في التاريخ». جورج ليفرون (Georges Lefranc).

خلال عمله في المجلة السنوية وبمناسبة العديد من خدعاته، استطاع سارتر أن يحرك قدراته في التمرد[33]. «سابقاً كنا نبدي سخرية محببة تجاه الضباط المدربين، كما تجاه الأساتذة، لكن دون حدة. عام 1925 تغيرت اللهجة، وصرنا نلمح مشاهد قبول أكثر عنفاً» (Robert Lucot). إن انتقاد سارتر للمؤسسة ظل حساساً في مجال كل صحيفة سنوية. «إن فرحه بالحياة يفسر لنا دوره الراجح في المجلة، إنه القائد الفرح، الحبور والمفرط الحيوية مع رفاقه». (René Lucot).

اتخذ سارتر من غوستاف لانسون (Gustave Lanson) صورة السلطة بامتياز (وكان لانسون مدير معهد التعليم العالي

لحوالى ربع قرن)، وكان شخصية مركزية في بناء الدراسات الأدبية في فرنسا؛ له ثقله الملموس على العالم الجامعي. كانت سياسة لانسون تقوم على جوابه «لطلب الدولة بتأهيل فرقة من النخب القادرة على التدخل في أية جبهة، وذلك استناداً إلى سلاحها السري: إتقان الخطاب»[34]. ومع ذلك فقد كان لانسون على وعي تام بأن وظيفة معهد المعلمين النوعية لم تكن «ملء الكادرات بالشخصيات المناسبة، بقدر ما يجب أن تكون خميرة وأن تعطي مستوى»[35]. في «الجمهورية الثالثة للآداب»، وفي «من فلوبير Flaubert إلى بروست Proust» يذكر أنطوان كومباينيون (Antoine Compagnon) أن لانسون في مقالته عن «أزلية الأدب»[36] كان يمثّل شخصية ساحقة لسارتر وبمعنى مزدوج. بالفعل، فهو يضيف شارحاً أن: «الأزلية الأدبية تنتمي إلى الجمهورية الثالثة لأن تاريخ الأدب الفرنسي [...] قد شكّل إنجيل الوطن»[37]. و«قد شكّل سارتر نقطة قوة في موضوعة الجمهورية الثالثة، مضيفاً، أنه قد كبر في ظل بوانكاري (Poincaré) [...] وفالييير (Fallières)، وهريوت (Herriot) وقد تدرب على جده الذي يصوّت راديكالياً «حزب الموظفين»»[38]. إن تمرد سارتر قد طاول السلطة الأدبية التقليدية، كما نقلها جده شفايتزر، ممثلة بغوستاف لانسون عبر تصفية حساب شخصي ابتدأ منذ أعوام 1920 والذي لن يكون له نهاية أبداً على ما يظهر.

عام 1927، وبحسب شهادة بيير فيلار Pierre Vilar، «تخطى سارتر كل الحدود» (قانون بول بونكور Paul Boncour كان قد أقر، مع التحضير العسكري الخاص «يجب توجيه كل ثروات البلد باتجاه الدفاع الوطني»). إذ صدرت عريضة تعارض هذا القانون: «كان ذلك بيان سارتر النظري: قد يكون ثمة حق بأن يصار إلى الفرض على

الغير أن يكون جندياً، لا أن يكون ضابطاً»، هذا ما أكده، وقد وقعت العريضة (بيير فيلار)، التي نالت توقيع 54 شخصية. وفي الصحيفة السنوية، جسد سارتر الكابتن كامبوزات (Cambuzat) ـ الضابط المسؤول عن الإعداد العسكري في معهد المعلمين ـ وألّف أغنية بمثابة فضيحة. «لقد أدخل على المجلة نزعة معادية للتجنيد العسكري لم تكن معروفة حتى تاريخه. أما الكابتن كامبوزات فقد أخذ الأمر بتساهل، في حين أن مدير المعهد غوستاف لانسون قدم له اعتذاراته، ووبخ الطلاب ـ وكان ابنه قد توفي إبان حرب 1914. قام سارتر بالاعتراض قائلاً: إنه لو ظل لانسون نظراً لسنه غريباً عن الحرب، فإنه (أي سارتر) ورفاقه سيكونون إما من فاعلي الحرب أو من ضحاياها. بذلك كان سارتر يؤكد على استقلاليته الأخلاقية» (رينيه لوكوت). أُنزل اللوم على الطلاب، وقدم الوزير تقريراً، كما أشارت مقالات صدرت في «L'Œuvre» وفي «La Victoire» إلى أهمية الحدث، وقد جاء في مجلة اتحاد أصدقاء معهد المعلمين العالي، أن «هؤلاء الطلاب قد تجاوزوا حدهم».

في تحدياته ومهاجماته المتعددة ضد السلطة مستعملاً الأسلوب الممازح، وضع سارتر أمامنا تعاطفه مع «الشعور بالجماعة، مستخدماً لغة تأويلية في إطار تقليد جيل رومان (Jules Romains)» (Baillou). ألا تمثّل سنواته في معهد المعلمين البؤرة التي شهدت تكونه السياسي؟ فهو يبدو فيها وريثاً يريد التدمير، وعنصراً في فرقة صغيرة فوضوية، منظماً لكل المزحات الاعتراضية، مبدعاً لندوة تعلم قلّة الاحترام والتقدير، تبعاً لحالة ستستمر طيلة حياته. ومن المفارقة بمكان أن نرى علاقة سارتر بالسياسة ستظل مناسبة لنموذج في الفلسفة الفرنسية، أعطى نفسه الحق، وخلافاً للفلسفة الألمانية، للتدخل وقول كلمة في

السياسي في كل لحظات السياسة. بهذا المعنى شكّل سارتر، مع وضعه موضع الممارسة قدراته في الهدم للمرة الأولى، فهو يمثّل حالة فرنسية تقليدية. من هنا نفهم رفضه للمهمة الجامعية، ثم لاحقاً طلبه أن ينقل إلى الحدود وأن يذهب إلى برلين ليرى ما يجري على جهة الفلسفة في العصر الحاضر، ونفهم أيضاً نقده المؤسسة الفلسفية واختياره اكتشاف طرق جديدة أكثر ملاءمة مع متطلبات التفكير في الحاضر. إن سلوك هذه الطرقات يعني بالنسبة له اكتشاف طرق تفكير أخرى، مثل النقد الأدبي لشعر مالارميه، الأغاني، القطع المسرحية والروايات، والهروب إلى أشكال جمالية كانت ناشئة آنذاك وإن لم تكن مشروعة، مثل السينما، التي حاول من أجلها، ومنذ تلك السنوات، إعطاء نظريات مفهومية جمالية[39].

في هذا التوصيف لسارتر ابن العشرين، وفي حالته كوريث يريد الهدم، نجد متمرداً متعجرفاً تجاه كل شكل من أشكال السلطة التي تطالعنا، فهو المعارض للجنرال شارل ديغول في سنوات 1950، والمعارض للولايات المتحدة الأميركية في سنوات 1960، والحامي للجماعات الماويّة في سنوات 1970.

الفصـــل الثامـــن

استكشاف الهوامش والثقافات الأخرى

أزمة عقد الثلاثينيات

تُعتبر سنوات 1930 ـ 1939، من السنوات الأقل إضاءة على المسيرة السارترية، لكنها على جانب من الأهمية وعلى غير ما صعيد. إنها مرحلة أزمات متتابعة، وفي خلالها تطورت رؤية الكاتب للعالم، كما تطورت أعماله الأدبية والفلسفية والأخلاقية. وإذا ما وضعنا الأمور في إطار آخر، فإننا نجد سارتر يبرهن بطريقة علماء الاجتماع رفضه الاجتماعي للنفوذ، وكيف يبني مجتمعاً ـ مضاداً بديلاً، عبر نفي لمحيطه لا يساوم إطلاقاً على أية تسوية في أيّ من وجهات النظر، ودون قبول بأية وظيفة مؤسساتية في إطار فهم للتحول الاجتماعي بدءاً من نفسه. من هنا كان الرفض أولاً: رفض مهنة الأستاذ الممارس بطريقة تقليدية، رفض التراتبية في المدرسة، رفض برجوازية هافر، رفض دور الزوج، رفض وضعية أو حالة المالك، بل رفض صفة المواطن، ذلك أنه لم يشترك في أيّ من الانتخابات، وقد ترك إضرابات 1936 الكبرى ونظر إليها من الخارج، (وكان عمره 31 سنة!). في إمكاننا إذاً التحدث في هذا الإطار عن يقظة متأخرة نسبياً على العالم.

كان سارتر آنئذٍ شخصية معارضة ـ للمؤسسة، شخصية متحررة بشكل أساسي ولا يبدي احتراماً للمؤسسة، وكان موقعه، منذ تلك الفترة في النقاشات التي تتناول طرق الحياة اليومية وسط تيار متحرر فوضوي ـ نقابي. وهو لم يتخل عن هذه الأولية، وفيما بعد أبدى كرهاً للعلاقات التراتبية بين أستاذ وتلميذ، ولم يعترف لأي شخص آخر بأي دين، ولم يقم على الأرض أي حوار مع معاصريه، معلناً صدقيته عبر خطابات عنيفة جداً وشديدة التمرد معيداً من الصفر خلق توظيف جديد مختلف في طرق الحياة اليومية (العلاقة بالمال، تعدد الزوجات،... إلخ). في هذا البناء الميكرو ـ اجتماعي البديل، كان سارتر وفي وقت واحد شخصية أُحادية الجانب منذ بداية مسيرته وحتى نهايتها، حتى لو لم ينقطع عن التأكيد بأنه يتغير من وقت إلى آخر بانياً أسطورته الخاصة في التغيّر.

إن مشروعه في الإنسان الوحيد، في الفردية الجذرية، يجد أساسه في فلسفة الذات. فمنذ العام 1930، وفي النص الذي وضعه بعنوان «أسطورة الحقيقة La Légende de la Vérité»، وكانت الجامعة الفرنسية هدفه، ثم راح يعنف الفلاسفة مطلقاً عليهم اسم «موظفي الجمهورية»، لم يمجد سارتر سوى الفرد الذي يعارض المجتمع من خلال استقلالية فكره. وبعناد تابع هذا النحو من التفكير كاتباً نصاً مصقولاً (حمل أول الأمر العنوان التالي «Factum sur la Contingence»، والذي صار بعد ذلك بعنوان: «Melancholia» ثم رواية الغثيان «La Nausée»)، الذي كان بحاجة إلى مفسرين لمناقشته على الصعيد الثقافي (سيمون دي بوفوار) وعلى صعيد النشر (نيزان Nizan، بوست Bost وآخرين). إنه سارتر الذي لم يكن قد وعى بعدُ قوة ريشته، وقد ظل عند وظيفة جمالية ونظرية.

إن الصياغة الأولى لـ«Factum sur la Contingence» قد نقلت بشكل مدهش كل مكتسبات تجربة هافر، مجادلاً في الموضوعات التي تطورت ثم تأكدت في الصياغة الثانية، ثم الثالثة: «الاحتمال» مقولة الفكر البرجوازي بامتياز ومقولة «القذرين»، نقد الإنسانية - التي صارت صفحة أساسية ولا تنسى - تحويل الذاكرة إلى وهم فعلي، وهم المغامرة، وأخيراً وبخاصة إدراك الوجود والعرضية من خلال تجربة محدودة، قبل كارثة اليقين الكبير والجنون.

في نصه «Carnet de la Drôle de Guerre»، يروي سارتر الاكتئاب الذي وقع فيه آنذاك. لماذا هذه الكآبة؟ أبسبب طقس الانتقال، الانتقال إلى عمر الرجال، أو بسبب الثمن الذي يجب دفعه بسبب طريقة حياته المتحولة، أو بسبب مشروعه الأدبي غير الكافي، والذي يصعب الإلمام به والذي رُفض من قبل العديد من دور النشر ولأكثر من مرة؟ ليس ذلك فقط، إذ يترافق هذا مع قصة حب فاشل مع أولغا (Olga) (وكانت تلميذة لسيمون دي بوفوار)، التي رفضته بقسوة، ثم تعقدت الأمور مع مشروع انتهى بعدم حمل الطمأنينة له: كتابة عمل جديد «المخيلة L'Imagination»، الذي حاول فيه فهم طبيعة الصورة عند الأشخاص المصابين بالهذيان. حينها طلب من رفيقه دانيال لاغاش Daniel Lagache مساعدته في تجربة ظاهرة الهلوسة النظرية (من حاسة النظر) حاقناً إياه بالمسكالين [شبه قلوي مستخرج من مسكر مكسيكي يحدث هلوسات نظرية]. «ثلاث غيوم متوازية تظهر أمامي» هذا ما رواه في «المخيلة»، «والظاهرة هذه تختفي بالطبع منذ محاولتي الإمساك بها [...] نجد في الطريقة التي تعود هذه الغيوم الصغيرة الثلاث إلى ذاكرتي بعد أن تكون قد اختفت، بعض الأشياء التي لا قوام لها والسرية، والتي

لا فعل لها على ما يخيل إليّ إلا ترجمة وجود هذه العفويات المحررة على أطراف الوعي»[40].

سلسلة من الأزمات كما نرى، بل انزلاق مرضي خاضع للمراقبة، جرى تجاوزه بالإنتاج الفني. فسارتر يهوي، ثم يعود إلى السطح ويخرج مجرباً كل أنواع الهوامش، طارداً الأرواح عن تجاربه في حركة إرادية تهدف إلى الصراع ضد جنونه الخاص مناقشاً إياه، رافعاً إياه إلى درجة جمالية ثم متجاوزاً إياه، ذاهباً رغم كل شيء إلى نهاية مشروعه الأدبي مؤلفاً كتابَيْه: «الجدار»، و«الغثيان».

إذا استطاع الخروج من الأزمة فذلك يعود إلى تقصٍ منهجي يتجاوز الحدود الثقافية الفرنسية، إلى استكشاف حضارات أخرى يجد فيها شرعية لتساؤلاته الخاصة. إن ما يسأل عنه قبل أي شيء آخر كان موافقة العُدد الثقافية التي تقدمها له ثقافته الخاصة، ونشأته الخاصة بالنسبة للعجلة التي وضعها لتحليل رموز العالم. وقدم تبريرات لأبحاثه في أماكن أخرى، عند هوسرل (Husserl)، عند دوس باسوس (Dos Passos)، عند همنغواي (Hemingway)، وفولكنر (Faulkner)، كما عند فيرجينيا وولف (Virginia Woolf) وجيمس جويس (James Joyce).

لاحقاً، استعاد سارتر هذه المرحلة، وتكلم على «الثورة الحقيقية» التي يشكّلها بالنسبة له اكتشافه الروائيين الأميركيين متحدثاً عن الانقلاب الذي أحدثه هذا الاكتشاف على تنويعته الثقافية. «إن ما أثار حماستي عند الروائيين المتأخرين الذين ذكرتهم هو الثورة الحقيقية التي قاموا بها في فن رواية القصة. فالتحليل الثقافي الذي شكّل منذ ما يزيد على قرن من الزمان

الطريقة التي تلقيناها لنعالج شخصية رواية معيّنة لم يكن إلا آلية قديمة لا تتأقلم مع حاجات العصر. إنه يتعارض مع علم نفس توليفي يعلّمنا أن الحديث النفسي إنما يشكّل كلاً لا تجزئة فيه. فلا يمكن استعمال هذا الأسلوب من أجل تصوير جملة من الأحداث تقدم نفسها كما لو كانت وحدة، زائلة أو دائمة، تتكون من عدد كبير من الإدراكات».

مبدياً جانباً نقدياً مميزاً تجاه التقليد الأدبي الذي يرفض أن يأخذ الحاضر بعين الاعتبار، يضيف: «إن الغيوم تتكدس فوق رؤوسنا. القتال يشتد في إسبانيا، ومعسكرات الاعتقال تتضاعف في ألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا. ومع ذلك فالحرب ما زالت تتهدد. ومع ذلك فالتحليل على طريقة بروست Proust وجيمس James يظل نهجنا الأدبي الوحيد، وأسلوبنا المفضل. ولكن هل يمكن لذلك أن يأخذ الموت الوحشي لأحد اليهود في أوسفيتز Auschwitz بعين الاعتبار أو قصف مدريد بطائرات فرنكو Franco؟ وهاكم أن ثمة نظرية أدبية جديدة تقدم شخصياتها لنا بطريقة توليفية. فهي تجعل الأفعال الكاملة بحد ذاتها تتكامل أمام أنظارنا، ومن الصعوبة بمكان تحليلها، إنها أفعال يجب إدراكها بشكل كامل بكل ما في أنفسنا من قوى مظلمة [...] إن أبطال همنغواي وكولدويل (Caldwell)، لا يعبّرون عن أنفسهم أبداً، إنهم لا يتركون أنفسهم عرضة للتشريح. إنهم لا يقومون بأكثر من الفعل [...] إنهم أحياء لأنهم ينبثقون فجأة كما لو كانوا من قعر بئر عميق. إن التحليل يعني قتلهم».

نلمس هنا العنف الذي بواسطته يشكك سارتر في مكتسبات التقليد الأدبي الفرنسي. فبعبارته «إن التحليل يعني قتلهم»، يشابه مطالبته بخلاص أشخاصه عبر أعمالهم، كما لو كانت التقنيات

المبتكرة من جانب الروائيين الأميركيين الجدد هي التقنيات الوحيدة التي بإمكانها أن تكون الحل. «إننا نستخدم ومنذ زمن طويل بعض التقنيات التي تساعدنا على إفهام القرّاء ما يدور في أنفس شخصياتنا». هذا ما أضافه سارتر. «إننا نكتب بشجاعة»، هذا ما قيل: «الطقس حار. فكيف لي أن أتسلق الهضبة؟»، أو أيضاً، إننا نستخدم الأسلوب المباشر، الذي أدخله فلوبير بحسب قول البعض، أو لافونتين la Fontaine بحسب قول البعض الآخر: «بول يمشي بصعوبة. الطقس حار. أيتها الآلهة الكبرى، كيف سيكون له القوة ليتسلق الهضبة؟». أو أيضاً تلك التقنية المأخوذة حديثاً من إنكلترا، في تقليد مأخوذ عن جويس: «واحد، اثنان، واحد اثنان، الحرارة الحادة وأنا ـ الهضبة ـ كيف لي أن أصلها أبداً...؟». هذه البراعات الأسلوبية، الصحيحة أو الخاطئة، تسمح لنا بأن لا نشير إلا إلى ما تقوله الشخصيات بوعي عن ذاتها. فهي تتجاهل ضرورة كل المنطقة المظلمة حيث تكثر المشاعر والمقاصد، هذه المشاعر والمقاصد التي لا يعبّر عنها بالكلام».

تجاه هذه الاكتشافات أصبح سارتر أحياناً أكثر تفخيماً، إذ أكد: «لقد حررنا الكتاب الأميركيون من هذه التقنيات المهجورة» ـ يلي ذلك لائحة طويلة من الأمثلة.

«لقد اختار فولكنر Faulkner [...] أن يقدّم أبطاله من الخارج، حين يكون وعيهم كاملاً، ثم يقدم فجأة أعماق ما في أنفسهم ـ في حين أنه لا يبقى فيها شيء أبداً. وبذلك فهو يخلق الانطباع أن كل ما يدفعهم للعمل إنما يوجد في مكان ما فوق مستوى الوعي الصافي. أما دوس باسوس وحتى يجعلنا نشعر بشكل أكثر حيوية بترسب فكرة جماعة في الأفكار الأكثر سرية في شخصياته، لقد ابتكر صوتاً اجتماعياً، سخيفاً وبوقار مصطنع يثرثر دونما انقطاع حولهم، دون أن نعرف أبداً ما إذا كان الأمر

يتعلق بكورس من الهزالة الامتثالية، أو بمونولوج يحرص الأشخاص بأنفسهم على الاحتفاظ به في قلوبهم».

لنقارب أخيراً تحليله لتطور الاكشافات العلمية الكبرى، ولنستعد أيضاً شغفه المتفجر مجدداً، فهو يختم: «هذه الوسائل كانت جديدة بالنسبة لنا عام 1930. وأولئك كانوا أول من فتننا. تماماً مثل ريمان Riemann ولوبتشافسكي Lobatchevsky اللذين خَطَوا الطريق الذي أتاح لروسل وآخرين مقاربة المسلمات التي تعتبر أساس الهندسة الإقليدية. لقد علّمنا هؤلاء الكُتّاب الأميركيون أن ما نعتبره قوانين لا تتغير في فن الرواية، ليس إلا مجموعة من المسلمات التي نستطيع تحريكها دون الوقوع في أي خطر. وقد تعلّمنا من فولكنر أن ضرورة رواية القصة ضمن نظام كرونولوجي ليست من المسلمات، فبإمكاننا تالياً روايتها ضمن أي نظام، من اللحظة التي يستطيع فيها الكاتب تعتيم المواقف والجو الذي توجد فيه الشخصيات.

أما «دوس باسوس فقد علّمنا الخطأ في وحدة العمل. وقد برهن لنا أنه بالإمكان وصف حدث جماعي من خلال جمع عشرين رواية فردية لا رابط فيما بينها. أتاحت لنا هذه الإيحاءات أن ندرك وأن نكتب روايات تعتبر بالنسبة للأعمال الكلاسيكية عند فلوبير أو زولا، مشابهة لما هي عليه الهندسة غير الإقليدية بالنسبة لهندسة إقليدس Euclide. بعبارات أخرى، إن تأثير الروايات الأميركية قد أحدث عندنا ثورة تقنية. لقد وضعوا أدوات جديدة بأيدينا، أدوات مرنة تسمح لنا التطرق لمواضيع لم يكن لدينا حتى الآن أية وسيلة لمعالجتها: اللاوعي، الأحداث الاجتماعية، العلاقة الحقيقية بين الفرد والمجتمع، الحالي أو الماضي»[41].

في هذه السنوات أيضاً، وبعد الولايات المتحدة الأميركية،

كانت ألمانيا المصدر الثاني الكبير للتجدد. كانت ألمانيا مصدّرة قوية للنماذج الثقافية، كما مثّلت كوكبة ثقافية حقيقية (في الأدب، الشعر، الفلسفة كما في القرن الثامن عشر إذ استقى فولتير مصادر من بروسيا، وفي بريطانيا والسويد). كانت رحلته الدراسية الأولى والفعلية إلى برلين: إن الذهاب إلى برلين بالنسبة له يعني القيام بحج ثقافي كبير باتجاه الفكر الجرماني، باعتباره فكراً مؤسساً.

بين 1933 و1934 كان سارتر في برلين؛ حيث اكتشف الفينومينولوجيا بقراءته لهوسرل (Husserl)، ما حدد فكره الفلسفي وجعله أكثر خصباً. بعد سنوات ثلاث، حرر وباقل من ثلاثة أشهر 400 صفحة من البحث الفلسفي حول فكر هوسرل، وفي العام التالي وبطلب من بولهان (Paulhan) كتب سارتر ملاحظة صغيرة عن هوسيرل: «سيدي العزيز وصديقي، إن الفينومينولوجيا عبارة عن فلسفة تقنية، ومن الصعوبة بمكان أن نقدم أيّا من مظاهر فكره للجمهور تحت أي مظهر أدبي: وأنا لا أمدح نفسي إن كنت قد توصلت إلى ذلك. ولكن وفي نهاية الأمر، لقد قمت بما استطعت القيام به. ولكم سيدي، أن تتصرفوا بهذه الملاحظة كما تشاؤون. إذا رأيتم وجوب طباعتها، فذلك جيد، وإذا رأيتم وجوب رميها في سلة المهملات فإنكم لا تجرحون بذلك شيئاً من عزتي ككاتب...». لقد أثار تواضع سارتر روح التسلية في بولهام، علماً أن المقالة التي صدرت في NRF في شهر كانون الثاني عام 1939 قد لقيت سعادة تعبير نادرة لما فيها من إضاءة ومن بلاغة. «لقد أعاد هوسرل موقعة السحر والرعب في الأشياء، لقد أعاد لنا ترميم عالم الفنانين والأنبياء: مخيفاً، عنيداً، خطراً مع موانئ من نعمة ومن حب [...]. ونحن لا نكتشفه في عزلة لا أدري أين هي؛

بل على الطريق، في المدينة، في وسط المدينة، شيء بين الأشياء، رجل بين الرجال»[42].

أما ما يجدر بنا أن نلاحظه، فهو الصدى الذي أحدثه الاعتراف بالجميل الذي أبداه سارتر الشاب غير المعروف، لكنه العنيد والملتزم، على فولكنر، غير المعروف أيضاً حتى في بلده والذي سيشعر بالامتنان تجاه سارتر. ثم إنه اعتراف بالجميل تجاه هيدغر Heidegger، إذ بعد قراءته «للكينونة والزمان» نجده يكتب له: «لأول مرة أصادف مفكراً مستقلاً، دخل إلى عمق مجال التجربة التي أفكر انطلاقاً منها. يُظهر كتابك فهماً مباشراً لفلسفتي، الأمر الذي لم أصادفه حتى الآن»[43].

كيف سيكون لفلسفة الإنسان الوحيد أن توصل إلى فلسفة الإنسان الملتزم عام 1945؟ كان لا بدّ من تجربة الحرب، تجربة العمل الصحفي في الولايات المتحدة[44]، حتى يتقوى سارتر في جمام الواقع وليسحب من فقاعته؛ إدراكاً جديداً للسياسة ولموقعه في السياسة، لقد عدّل منظوره بشكل جذري، ووسع من مجال تدخله، مضيفاً حبلاً جديداً إلى قوسه، مطوراً ممارسته، مكتشفاً الوظيفة الجدالية مع مشروع ثقافي كلياني، في ما سيشكل على الدوام أحد الثوابت الكبرى في فكره حتى ساعة موته.

الفصـــل التاســـع

«الاعتراض طريقة الفهم الوحيدة»

مفهوم آخر في نقل المعرفة

لقد أشرت أعلاه إلى الشعور الذي طبع النقاش حول آثار سارتر في السنوات التي أعقبت وفاة الكاتب. إن الشهود الأكثر حماسة، وأول الأدلة الذين أصروا على نقل انطباع عن مربٍ استثنائي اسمه جان ـ بول سارتر كانوا تلاميذ سارتر. التلاميذ الذين التقاهم في ليسيه فرنسوا الأول François Ier في هافر، وتلاميذ ليسيه لاون (Laon) وتلاميذ باستور Pasteur في نويلي (Neuilly)، أو تلاميذ ليسيه كوندورسيه Condorcet في باريس. إنهم التلاميذ الذين علمهم الفلسفة بين أعوام 1931 و1944. فمنذ اليوم الأول الذي وطأت قدماه فيه قاعة دراسة في آذار من العام 1931، التزم سارتر بمحض إرادته ممارسة تربوية جديدة، متحرراً من كل الممارسات، والإدارات وكل الاصطلاحات، ليصبح أداة تهديم ضد السلطة والتراتبية والمؤسسات التي يقوم بالتعليم فيها.

ففي سن الخامسة والعشرين أصبح سارتر بالنسبة للجيل الأول من طلابه في مدينة هافر المربي الذي لم يكن منتظراً أبداً.

لنأخذ على سبيل المثال ما اختلف به عن باقي الزملاء: كان يدخن الغليون - وكان ذلك نادراً؛ ويلبس سترة دون ربطة عنق - وكان ذلك غريباً؛ يدخل بخطى سريعة إلى غرفة الصف، وكان يبادر للحديث مباشرة دون الاستعانة بملاحظات، يداه في جيوبه، يجلس إلى المكتب أو يتمشى في وسط الصف. كان يتعامل مع طلابه دون أي قلق بالتراتبية، «يتحدث إليهم حديثه لرجال وليس حديثاً إلى صبية»، يتكلم على القديس أنسليم Saint Anselme وعلى الأمراض العقلية، على كانط Kant وعلى برجوازية هافر، يعوّدهم على السينما، يناقش معهم ألعاب كرة الطاولة والملاكمة، يتابع حديثه بعد انتهاء الصف في المقهى شتاءً، وعلى الشاطئ ربيعاً، يحمسهم على قراءة الروايات والقصص البوليسية الأميركية.

«لم أكن أحب من كانوا الأوّل في صفهم» هذا ما أوضحه لاحقاً. «كنت أهتم بشكل خاص بالذين يملكون أفكاراً، أو بتأمل قد ابتُدئ بالذين لم يكونوا قد تكوّنوا بعدُ، بالذين بدأوا تكوين أنفسهم»[45]. ما نلاحظه بوضوح هنا هو اهتمام سارتر الدائم بالأشخاص الذين يعملون على أنفهسم، يبحثون عن ذاتهم، والتواطؤ مع المراهقين، كل أنواع المراهقة، ومساندته غير المشروطة للذين يقفون على الهامش (هامش المؤسسة، الدولة، السلطة، وكل عادة أياً كانت). وفي ليسيه مدينة مثل هافر، حيث الاختلافات الاجتماعية واضحة جداً بين «الناس على الشاطئ» عن [حي] - «Sainte Adresse» حيث البيوت الجميلة تنتشر على السفوح وتطل على المدينة، وأناس الأحياء المنخفضة على المرفأ، حيث يختلط أبناء أصحاب السفن مع أبناء العاملين في الأحواض. وبعد وقت طويل من ذلك، وفي أحداث أيار/مايو 1968 وإبان تحليله لأزمة الجامعة، عاد سارتر مجدداً لهذه النقطة: «على المدرسين أن

يتولوا مهمة تعليم جماهير طلابهم، لا ما يبدو لهم جديراً بإدماجهم في النخبة، بل عليهم جرّ الجمهور بأكمله إلى الثقافة. يفترض ذلك بوضوح طرق تعليم أخرى. يفترض ذلك الاهتمام بكل الطلاب، وأن نحاول أن نكون مفهومين من قبل الجميع، ويجب أن نسمع منهم أكثر مما يصار إلى الكلام معهم [...]»[46].

ظلت شهادات تلامذته الاول في ليسيه هافر لصيقة بهذه التفاصيل الدقيقة، علامة على الصدمة من هذا الاتصال المباشر الأول: «أنتم تأتون إلى هنا مع الحد الأدنى من العدة، قلم حبر، قلم رصاص، ودفاتر، إذ إن هذه أدوات أساسية وكافية». تلك كانت تعليمات الأستاذ الذي كان منذ ذلك الوقت يقف وسطنا، مقيماً حواراً، مستحثاً أسئلة نطرحها نحن، إذاً لا محاضرة عامة أساسية، ولا حتى محاضرة، بل أنواع من المحادثات»، هذا ما كتبه لي روبير مارشندو Robert Marchandeau. «كانت طرقه ثورية، كان يهمل تحضير البكالوريا ليهتم أكثر بتشكيل الأذهان، وهذا ما لم يتذمر منه أحد، طالما هو يأسر جمهور مستمعيه؛ أما بالنسبة للفروض فكان يأخذ منها واحداً من المجموعة، وبالصدفة، ويدع أحد التلاميذ يقرأه، طالباً الرأي العام، وكان الفرض هذا علامة تؤخذ للجميع من أفراد الصف»، هذا ما أضافه بيير برومنت (Pierre Brument). «مع سارتر كان ما يجري إعادة نظر في الأفكار المتلقاة، وتطور الروح النقدي، وفرض فكرة شخصية وسط استقامة فكرية. لقد كانت مرحلة تحديث الفكر في «Térence»، ما يجعل الناس جميعاً لا كائنات متكافلة وحسب، بل كائنات جمعية مسؤولة. كانت دروس الأخلاق تتيح له فرصة التعبير عن نفسه، ذلك أنه بعد أن يعطينا عن مسألة ما مختلف الأطروحات الحاضرة، وهذا ما كان يكفي لاجتياز الامتحان -، كان

يقول لنا بعد ذلك ما يفكر فيه هو بالذات عنها، وكان ذلك أمراً شديد الشغف، إذ يشارك الصف بكامله في نقاش الأفكار التي كانت تفاجئنا بجدتها وعدم امتثاليتها؛ لقد حبب إليَّ تذوق الأدب الفرنسي، والأدب غير الفرنسي والسينما، هذا ما شرحه لي جان غوستينياني (Jean Giustiniani).

أما بالنسبة للمهندس جان بالادير (Jean Balladur) والذي كان تلميذه في ليسيه كوندورسيه سنوات 1943 ـ 1944، فلم يتوانَ عن إحضار مذكراته المدوّنة وتصويرها ونسخها، قائماً بعمل كبير، ما أتاح فهم الفحوى الفريدة لرسالة سارتر لفهم شخصيته. في إحدى رسائله، أورد ما يلي: «بالنسبة لي، كان يستحيل عليَّ أن أفهم سلوك سارتر السياسي، وإذا كان الغير قد جعل منه «رجل» أدب، أو «رجل» مسرح، فإن «الرجل» سارتر كان أساساً وقبل أي شيء آخر «فيلسوفاً» [...] وأنا لا أعني بالفيلسوف أستاذ الفلسفة، صاحب الاختصاص، أو الكاتب الفلسفي، بل هو الرجل الذي لا يميّز بين «الفكرة» عن العالم وبين سير العالم. فللعالم عنده معنى. هذا المعنى لا يدخل إليه بالفكرة وحسب، بل هو يجسده في ذاتيته [...] لم يكن سارتر لا ساذجاً ولا شكاكاً. لقد كان فيلسوفاً. «طريقة كينونته كانت من خلق طريقة تفكيره بالواقع»».

بوصفه مربياً، التزم سارتر بمحض إرادته وسط ممارسة لا يتجرأ إلا القلة من تحقيقها في الواقع وبكثير من الشجاعة والثقة بالنفس. وإذ قام بمراجعة كل الأمور المسبقة في الثقافة الفكرية بطريقة جذرية، أكد سارتر أولية الموقف المعاش على ما هو تحكمي في التقليد وفي الماضي، وهو يعلن أن التنظيم التراتبي في المؤسسة التي يمثلها هو تنظيم اصطناعي، فارضاً مشروعه البديل،

دون أن يصرخ إطلاقاً. قام بذلك أولاً في صالة الدرس حيث كان يدرّس، ثم امام المستمعين الذين تجمعوا ببراءة في انتظار حفلة شعائرية، تعتبر نموذجاً من تقديس التقليد. كان ذلك إبان تسلّم الشهادة التي استحق في تموز من العام 1931، وذلك نظراً لحداثة سنه ولمشروعيته الفكرية، إذ منح شارة التميز وكان ألقى خطاباً بالمناسبة. فكيف لنا ألاّ نتعلق بإحدى هذه اللحظات التي تميّز دخوله الأول على المسرح العام في الممارسة السارترية؟

ففي أرشيف ليسيه هافر، وتحت عنوان اصطلاحي «أكاديمية Caen، ليسيه هافر» نجد نصاً يحمل العنوان التالي: «توزيع احتفالي لجوائز ـ 12 تموز 1931. خطاب السيد سارتر أستاذ مجاز في الفلسفة». خطاب أشار إليه العديد من الشهود الذين سألوا عنه، وكانوا قد أشاروا إلى حدث يستحق الذكر، إنه خطاب أظهر تذمر الأهل وفرح التلاميذ: خطاب فضيحة، دون أية رقابة، ودون أدنى ارتباك، ودون أدنى تكتم؛ وأمام 800 مشاهد في واحد من أكثر الاحتفالات ارتباطاً بطقوسية المجتمع الفرنسي، أمام الذين يمثّلون هناك سلطة الدولة وتراتبية المنطقة والليسيه، سيقوم سارتر، أكثر الفلاسفة اعتزازاً، بنقل التمرد بثقة في النفس وبادعاء ومهارة لا مثيل لها.

في أيار/مايو من العام 1968 وبسؤاله عن ثورة الطلاب وعن خصوصية الممارسة التربوية، أجاب سارتر ببساطة «كنت أشعر أني «السيد» حين استحصلت على الصمت، إذ قدمت خطاباً بمناسبة توزيع الجوائز وكان على يساري مدير المنطقة، ومدير الثانوية على اليمين أمام مدارس ليسيه متحجرة». إن ما يرفضه سارتر بحريته هو مقدمات السلطة التي تقدمها له الشرعية الفكرية. كما يرفض نفاق كل التنظيم التراتبي، وهو يتسلى بهدمه

علناً كما تهدم قصور من أوراق اللعب. لا عذر لسارتر، إذ أصبح مثل آلة تحريض، آلة حرب ضد اتفاق المناسبة، ضد هذا النفاق الثقيل والمميت، هذا الاحترام الإلزامي لمؤسسات الماضي. لا عذر لسارتر الذي يفخخ النظام الذي منه انطلق، النظام الذي ينصبه. لا عذر لسارتر، لأنه خان وضعه الاجتماعي في التواطؤ مع المراهقين مدافعاً عن قيمهم، ثقافة الحاضر، «الثقافة الحقة»، التي يجب صنعها والتي تطلق مشروعها عبر نزع القدسية عن احترام القدامى السلبي، عن مواضيع أوحى بها المعلم، وخياره لاستكشاف فاعل في الفضاء المعاصر.

هل بإمكاننا أن نتصور ما كانت تمثّله السينما عام 1930 في مدينة فرنسية في إحدى المناطق؟ سارتر يتذكر بنفسه كلمات لأناتول فرانس Anatole France: «السينما تجسد المثال الشعبي السيّئ بشكل مادي [...] لا يتعلق الأمر بنهاية العالم، بل بنهاية الحضارة». وإذا أخذنا واقعاً وسبباً من أجل هذا الفن، الذي يمثّل منذ زمن طويل أحد أكثر الأمور حباً لقلبه، فهو ينتهز المناسبة ليتحرر علناً مما أسماه لاحقاً «الثقافة الباطلة». «السينما فن يعكس حضارة زمننا» هذا ما أكده سارتر. «إنه فن أليف، شديد الارتباط بحياتنا اليومية. ندخل في لفحة هواء؛ نتحدث، نضحك، نأكل في صالات العرض، لا احترام لهذا الفن الشعبي، إنه فن لا يباهي أبداً تلك العظمة التي تدخل في اللذة التي قدمها الفن المسرحي لمن هم أكبر منا: إنه طفل طيب وأكثر قرباً منّا. إذا كان بالإمكان البرهنة على أن السينما هي فن بالفعل، فلن يكون علينا، خلافاً لذلك، إلا أن نمتدح أنفسنا على تحول العادات [...].

«يخيل إليّ أن عدم احترامك الكلي للفن السينمائي، وطرقك الفروسية في استخدامه لهي مما تستفيد منه أكثر من مزيج من

الإعجاب الجامد وبلبلة الإحساس والخوف المقدس. لقد قال لك كبار أدبائنا الكلاسيكيين الكثير، وأنا أتحسر لأنهم كانوا فنانين: أنت تتأفف من جملهم الجميلة، إنها حجج لألف سؤال ماكر. وبدون شك، شيئاً فشيئاً ورغماً عنك! لقد استفدت من تجارته ربحاً قدرته فيما بعد. يستحسن في بعض الصالات المعتمة، المجهولة من الأساتذة ومن الأهل، أن تجد فناً سريّاً، يُضجر بتكراره ولا أحد يحلم أن يقول لك، إنه كان فناً. بكلمة واحدة، لقد تركوك إزاءه في حالة من البراءة. لأن هذا الفن قد تغلغل قبل الفنون الأخرى، وهذا ما جعلك بهدوء تحب الجمال تحت كل أشكاله [...].

«إني أقول: إن السينما هي فن جديد، له قوانينه الخاصة ووسائله المميزة، ولا يمكن ردها إلى المسرح. وهو فن يخدم ثقافتك كما تخدمها اللغة اليونانية أو الفلسفة [...] إذاً، هذا العالم الجديد، أقول إنك تجد نفسك فيه بشكل جيد: لقد اكتسبت عادة أكيدة في التوجه في متاهة حبكاته، ورموزه وإيقاعاتها. لقد رأيت أناساً مثقفين يضيعون في هذا الفن، لعدم قيامهم بارتياد صالات العرض. ولكن أنت الذي تتردد عليها، مع أنك، ربما، لا تستطيع أن تعطي انطباعاتك وأفكارك شكلاً معيناً، لقد كنت على راحتك: لا شيء ينفصل، ولا شيء يخيب أملك.

«باستطاعة أهلك أن يكونوا على ثقة: إن السينما ليست مدرسة سيئة. إنها فن سهل ظاهرياً، لكنه فن صعب جداً في عمقه، ويمكن الاستفادة منه إذا ما حسن الأخذ به: ذلك أنه يعكس، بطبيعته، حضارة عصرنا. من يعلمك جمال العالم حيث تعيش، شعر السرعة، الآلات، قدر الصناعة المدهشة واللاإنسانية؟ من.. إن لم يكن «فنك»: السينما؟ اذهب إليها غالباً. فهي تسلية في الفصل السيئ؛ وخذ فرصاً جيدة قبل ذلك!»[47].

لاحقاً، وبالسؤال عن سنوات دراسته الخاصة، راح سارتر يفكك بوضوح وببساطة النظام المحكم الذي كان قد تشكل فيه: «لقد كان الأساتذة على درجة من الهزالة» هذا ما كان يقوله شارحاً: «لم يكن لديهم ما يقولونه لنا... بل إن مبدأ المحاضرة الأساسية كان مبدأ يصعب الدفاع عنه... لم يكن بوسع نيزان (Nizan) أن يتنفس وسط هذا النظام المعد لتأبيد احتكار العلم»[48]. تجاه خطاب، أو ممارسة على هذا التماسك، تجاه هذه الثقة في تأكيد قناعاته، لا يمكن لنا إلا أن نتساءل عن سنوات نشأة هذا الولد، سارتر، وأن نتذكر نمط المميّز واللانمطي الذي تلقاه هو بالذات والذي أعطانا عنه بعض العناصر في «الكلمات».

كلنا يعلم، أن سارتر يتيم الأب، ومنذ الحادية عشرة من عمره كان تلميذاً في باريس وعند أمه، آن ماري، وعند جديه لأمه. حتى العاشرة من عمره وبعيداً عن مقاعد المدرسة القروية تلقى سارتر التعليم من جده، شارل شفايتزر Charles Schweitzer (1844 – 1935). والذي كان بعد إحالته على المعاش قد استعاد الخدمة من أجل تربية «ابنه الصغير» كما يشرح ذلك في رسالة إلى أحد أقربائه: «لقد جعلت من نفسي معلم مدرسة لرجلي الصغير الذي أتولى تعليمه، إذ أقوم بنفسي بتعليمه، فألقنه التاريخ والجغرافيا. لا شيء ألذ من أن تعلم، وأن تربي هذه العقول الصغيرة». هذا الأستاذ المجاز بالألمانية، صاحب كتاب «تعليم الألمانية» وصاحب طريقة تجريبية في تعليم الألمانية، الذي تستعين به كل الليسيات في فرنسا، هذا الأستاذ كان أحد كبار المربّين في الجمهورية الثالثة. فمنذ عام 1891 قام شارل شفايتزر مع أحد زملائه من الألزاس، جان - باتيست روبر Jean-Baptiste Rauber بتأسيس «جمعية نشر اللغات في فرنسا»، بهدف جعل

تدريس اللغات الأجنبية أكثر ديموقراطية، من خلال تطوير تعليم اللغة المحكية، من خلال تغليب الثقافة على القواعد، وقد ناضل لجعل أفكاره تنتصر في الجامعة.

تندرج التنشئة التي تلقاها سارتر إذاً، في خط هذه التربية التجريبية التي حملها البروتستانت الليبراليون، والتي طبعت السنوات الأولى من الجمهورية الثالثة، إلى حد أنه أطلق على هذه المرحلة لقب «عصر البروتستانتية الذهبي». إبان هذه الفترة أحاط جيل فري (Jules Ferry) نفسه بدائرة من الخبراء، كانوا جميعاً من البروتستانت الليبراليين، أمثال فليكس بيكو (Félix Pécaut) أو فرديناند بويسون (Ferdinand Buisson)، فكانوا له بمثابة مفتشين عامين في التعليم الابتدائي، وهو لهم من جانبه وبحمايته إنجاز «القاموس التربوي» المعروف عام 1897. هذا القاموس، الذي يعتبر بمثابة توراة التعليم الابتدائي، وخلافاً للتعليم الآلي والمحافظ في المعاهد الكاثوليكية، والقائم على سلطة المعلم، أتاح تطوير كل المعتقدات والقيم العزيزة على نفس البروتستانت الليبراليين: الثقة بالمستقبل، وفي خيار الولد الحر، وبالعقل، والتاريخ والطبيعة. «في حين أن تعليمنا الثانوي والابتدائي كان يعود إلى القرون الوسطى، يقول بريال (Bréal) فإن تنظيم تعليمنا الابتدائي حيث تأسس قبل القرن العشرين، فهو ابن (هكذا) البروتستانتية».

وإذا كانت مهمة سارتر التربوية قد انتهت مع العام 1944، فإن تقربه من المراهقين ظل قائماً. أما فيما يخص اهتمامه بنقل المعرفة، فإنه قد عبّر عن ذلك بوضوح إبان أحداث عام 1968، وفي الوقت الذي أبعد من السابق عن المسرح الثقافي قام بكتابة مؤلفه عن فلوبير. وهنا ظهر ولمرة أخرى التماسك المطلق في الحالة السارترية، التي لا ترد إلى العمر، وللسلطات والسعادة،

والشهرة ـ فمنذ خطابه أثناء توزيع الجوائز في ليسيه هافر، إلى تدخله في السوربون في أيار 1968 ـ وعلى مدى أربعة عقود، ظل سارتر على رفضه الجذري للوسط النخبوي الذي انطلق منه، وعلى موقع «سلطة الحق» الذي دافع عنه بعض أقرانه.

صحيح أن عدداً قليلاً من منظمي حركة أيار/مايو 1968 قد ذكروا سارتر (خلافاً لماركوز Marcuse واليتش Illich وآخرين)، فهو مع ذلك قد ظل بالنسبة لهم شخصية معيارية، يُرجع إليها وتستشار. تظهره تصريحاته جميعها، التي أعلنها في تلك الفترة، رجلاً بعمر الثالثة والستين، وبتناغم كلي مع حركة أيار/مايو 1968. «عندما كنت في العشرين من عمري، أعلن سارتر يومها ـ كنا نعترض ضد نظام المحاضرات (التي تلقى من على الكراسي) «ex cathedra». لقد كان عددنا قليلاً [...] وكنا نقدر أن الكتب أفضل من المحاضرات ـ كان ذلك صحيحاً ـ وكانت طريقتنا في البرهنة على ذلك قد انحصرت في عدم حضور المحاضرات [...]. أما الآن فالوضع يختلف كلياً [...] فثمة عدد كبير من الطلاب لا يرون الأستاذ مطلقاً. إنهم يسمعون فقط بواسطة مكبر للصوت، شخصاً لاإنسانياً بشكل كامل ولا مقبولاً يلقي عليهم محاضرة لا يفهمون إطلاقاً الفائدة التي يرجونها منه. إن الأستاذ في الكلية هو دائماً، وهذا ما كانه في أيامنا، شخص قدّم أطروحة يظل يكررها طيلة حياته. كما أنه واحد ممن يملكون سلطة يتعلق بها بكل قواه: إنه يفرض على الناس، باسم معرفة قام بجمعها، أفكاره دون أن يكون لمن يستمعون إليه حق الاعتراض. إذاً إن معرفة لا يوجه إليها النقد باستمرار لتتجاوز نفسها أو لتتأكد بواسطة هذا النقد، هي معرفة لا قيمة لها»[49].

في تحليل له، يبدو أنه قد انطلق من خطاب هافر، تبدو قوة

انتقاده للنظام النخبوي وقد اتخذت صدى ثقته بنفسه منذ سنة 1930. «لدينا، في أيامنا، في الجامعة هذه الجزيرة المضحكة والمؤلفة من محاضرات «من على المنبر» وقد وضعها سادة لا يتنازعون فيما بينهم أبداً». ثم يؤكد موبخاً رفيقه في معهد المعلمين العالي بعبارات واضحة القسوة: «إن السلطة بحسب آرون يجب أن تنتقل من معلم إلى معلم، من بالغ إلى بالغ؛ يجب أن يتم تداولها من الأعلى، وكما كان النبلاء في النظام القديم، لا البرجوازيون الذين كانت لهم سلطة إنهاء النبالة عن أحدهم [...] فهذا هو التعليم غير المراقب وغير الخاضع للمراقبة الذي أعطي لنا والذي ما زال يعطى لليوم. من هنا يجب على الطلاب لا أثناء السنة الدراسية في المحاضرات وحسب، ولكن في السنة المقبلة أيضاً أن يكونوا هناك لأجل تصحيح الخطأ عند الحاجة وحتى يعلم الأستاذ أنه سيحاكم في الوقت نفسه الذي يخضع فيه غيره للمحاكمة، كلّ شيء هنا: إذا كان الذي يحكم غير خاضع للمحكمة فإنه لا وجود لحرية حقة»[50].

ما يرتسم في هذه العبارات هو إبراز التعارض بين «سلطة معطاة» و«سلطة القانون أو الحق»، إنه تصور لمعرفة مثالية لا تنفك عن التساؤل بطريقة نقدية تقوم على تحليل شروط تدخلاتها الأخيرة.

لا عذر لسارتر الذي تسلح بكل الألقاب الممكنة التي تعطيها المؤسسة، وهو يداوم على متابعة عمله الحفري في هذه المؤسسة بالذات، لقد ظل جذرياً وعنيداً ومنسجماً متحالفاً باستمرار مع حالة المراهقة رافعاً إياها إلى المركز الوحيد المناسب «إن طريقة التعلم الوحيدة، هي التي تقوم على الاعتراض» ـ هذا ما شرحه بوضوح في تلك الفترة. «وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعل من الإنسان رجلاً، [...]. والمثقف بالنسبة لي هو من كان وفياً لمجموع سياسي واجتماعي إلا أنه لا ينفك يعترض عليه»[51].

يبدو هذا الاستعداد الدائم باتجاه الغير في قابليته للانجراح وفي بحثه في بعض الوثائق الخاصة. حتى سارتر لم يكن يعرف الكثير عن ذلك، إذ أجاب دائماً بأنه حاضر لأي نداء من مجهول، ولتلبية أي طلب بالمساعدة، في كتابة مقدمة، بتقديم دعم مالي في ممارسات ظلت في الكواليس بشكل طبيعي وثابت ودون الارتباط بأي إعلان. هكذا وفي يوم من شهر أيار/مايو 1969، بقيت مع سارتر لمدة ساعتين لنتحدث عن نيزان: لقد أجاب أولاً على تساؤلاتي، ثم سألني ببساطة عن أصولي وعن دراساتي. كنا نجلس على كرسيين عاليين أمام النافذة، وكان يتكلم بسرعة، بصوت لا يخلو من النبرة، يقتصد في التعبير، لكنه يبحث وببطء غالب الأحيان عن الجملة الصحيحة، عن الكلمة الصحيحة، كما لو كان يريد الدقة في ذكرياته عن نيزان. مرةً أو مرتين، إبان الحديث كنت أوحي بكلمة، بعبارة أو بصيغة يتقبلها بطيبة خاطر ويتملك منها ليكمل فكرته أو جملته. هذا البناء المزدوج، بيني وبينه، هذا الحوار المتطور معه كان مفاجأة لي وقد أعطاني في ذلك شعوراً بالامتلاء. ألم تكن مواقفه في الخط النقدي نفسه الذي عبَّر عنه، قبل عام من ذلك ضد «أستاذ الكلية التقليدي» «السيد [...] الذي يملك سلطة يتمسك بها بشكل مخيف؛ سلطة من يريد أن يفرض على الناس باسم معرفة قام بجمعها، أفكاره الخاصة، دون أن يكون لمن يستمع إليه أي حق بالاعتراض»؟ نعم.. هذا ما كان فعلاً. سارتر كان واحداً لا يعلن باسم المعرفة التي تمكن منها، أي حق بسلطة، ولا أي استعلاء، أو تراتبية؛ وهذا ما كان يزيد في حماسة الطالبة التي كنتها أنا ذات يوم. تجربة صغيرة بكل الأحوال، ولكن ألا تعطيني الشعور بهذا المعطى النادر: إنه يعارض مقدمات السلطة التي تقدمها له مشروعيته الثقافية، بإسدائه للغير، المجهول، بكرمه واستعداده، وسائل تأسيس هويته الخاصة.

الفصل العاشر

التفكير في الحديث

في «الغثيان»، يعيش أنطوان روكنتان Antoine Roquentin، وهو الشخصية الاساسية في هذه الرواية، وحيداً في بوفيل Bouville، حيث يقوم بأبحاث عن المركيز دي رولبون de Rollebon، أحد علماء القرن الثامن عشر. يجرجر أنطوان حياته مثل زبون دائم يمر غريباً، متلصلصاً، يودع انطباعاته في مذكراته. إنه وصف متفاقم لتجربته في إمكانية الحدوث، رواية لانطباعاته: «نوع من الاشمئزاز العذب» أو ربما كان «نوعاً من الغثيان»، ومحاولة للتهرب من ذلك إذ «لا دم فيه ولا لحم ولا ليفماء». لقد توصل للتخلص من إقليمه الدبق والمكروه من خلال التقلب غالب الأحيان وسط معارضات مزدوجة بين «الرتيب» (اليومي) و«العجيب»[52]، يساعده في ذلك قطعة موسيقية مجهولة، وصوت امرأة يأتي من مكانٍ ما:

«عندما يبدأ القمر الكامل بالظهور

كل ليلة، أحلم أنا حلماً صغيراً»

«الصوت القوي والأجش يظهر فجأة، والعالم يتلاشى، عالم الموجودات»[53].

على غرار روكنتان، وبمعارضة العلاقة الجدلية التي يقيمها مع محدداته الاجتماعية الخاصة، طوّر سارتر آلية فكر أصيل بتوجهه للمعرفة عبر اكتشاف مغامر للعالم، وبشغف متفجر للجديد وتبني الحديث بشكل مدروس. وقد أقام فلسفته على أساس قطيعة مع المؤسسة الفلسفية التي رأى فيها قيداً، ولذلك التزم منذ سنوات الدراسة في معهد المعلمين العالي بدراسة وتحليل أشكال تعبير جديدة. لغة أجنبية، صوت أجنبي، موسيقى أجنبية، اكتشاف الرواية الأميركية، اكتشاف الفلسفة الألمانية: إن اكتشاف العالم بات قائماً على دوائر ذات مركز واحد، إنه عالم يقدم إليه بشكل منسق عبر دوائر تزداد اتساعاً، وتزداد عمومية.

يتسق ذلك مع تأكد فكره وموقعه (محاضرات في الفلسفة في ليسيه هافر، وباستور، وكوندورسيه، محاضرات في قاعة «Lyre» في هافر، مقالات في «(NRF)»، نصوص فلسفية، إصدار أعداد خاصة من «Temps Modernes»، وعدد خاص عن الولايات المتحدة، وعدد خاص عن الهند الصينية.. إلخ).

في اكتشافه لأشكال تعبير جديدة، تطلع سارتر إلى السينما «قصيدة الحياة الحديثة»[54]، فمنذ العام 1925 راح يوليها مكانة أساسية، مقيماً موازنة غريبة بين السينما وبين سيرته الخاصة عبر نوع من جمع لأخوة خيالية. «في قاعات سينما الحي المتساوية من حيث عدم الراحة، تعلمت أن هذا الفن الجديد كان فناً لي، كما هو للجميع. لقد كنا في العمر العقلي نفسه، كان عمري سبع سنوات، وكنت أعرف القراءة، وكان له اثنا عشر عاماً ولم يكن يحسن الكلام. يقال إنه كان في بدايته، وكان عليه أن ينجز بعض التقدم: كنت أفكر أننا نكبر معاً. لم ننس طفولتنا المشتركة»[55]. يذكر سارتر أيضاً بالاحتقار الذي أبداه جده،

حينما، في أيام المطر، الأم والولد، بتواطؤ يسرعان بلطف إلى كيناراما Kinérama، إلى «Folies-Dramatiques» و«Vaudeville» و «Gaumont-Palace». «ولدت في مغارة اللصوص، وتصنف من قبل الإدارة في عداد التسليات الخارجية [السينما] كان لها طرق شعبوية تغري الشخصيات الجدية؛ لقد كانت تسلية النساء والأولاد». بالنسبة له إذاً، كانت السينما منذ الطفولة من القرن العشرين. «كنا ندخل سراً، أضاف قائلاً، في عصر لا تقاليد له وعليه أن يقطع على الآخرين بعاداته السيئة والفن الجديد، الفن العامي، يجسد بربريتنا»[56].

عام 1925 ظهرت في فرنسا أول الكتابات، ومن بينها ما كتبه روبرت دسنوس (Robert Desnos) عن السينما. إلا أن الأمر ظل مع ذلك قليل التشريع. إلى أن كانت اللحظة، وفي إطار معهد المعلمين العالي إذ استقبل سارتر ابن التاسعة عشرة الجمالية السينمائية كما لو كانت جمالية عصره مقترحاً لها تصوراً فلسفياً متطوراً. «ثمة فلسفة جديدة قلبت عرش الأفكار التي لا تتحول؛ في الوقت الحاضر لا وجود لحقيقة إلا في التغير [...] والسينما تعطينا صيغة فن برغسوني. إنها تدشن الحركية في الجمالية»[57] أو كما كتب أيضاً «الفيلم [...] إنه وعي، لأنه تيار لا انقسام فيه [...]، إنه نظام حالات، هروب، إنه سيلان لا انقسام فيه، لا يمكن الإمساك به مثل أنانا»[58].

وفي الوقت الذي بدأ العمل فيه على مسألة العرض - أي عام 1926، حيث شرع في تحرير مقالته «Factum sur la Contingence» والتي بعد تعثرات نشرية طويلة تحولت إلى رواية «الغثيان» - يستحسن بنا أن نلفت النظر إلى الطريقة التي يعمل فيها الفكر السارتري، إذ ينظر إلى الجمالية السينمائية في

خصوصيتها تجاه الجمالية الرومانسية، أو تجاه الجمالية المسرحية، أو إذ يحرص على إدماج الفن السينمائي في اعتباراته الفلسفية.

في شرحه لشغفه بمتعة حقيقية، يقوم سارتر بإظهار بعض عناصر تصوره عن الإنسان وحيداً، عن الفرد، وهذا ما كان يعمل على تطويره: «من حيث الماهية، تمجد السينما امتداح الطاقة. فالأفلام الجميلة قد اتخذت موضوعاتها في صراع الإنسان ضد العاصفة «Way Down East»، ضد العناد الريفي «Une Belle Revanche»، ضد مكائد الصحراء «The Covered Wagon»، عمل الماكر النصاب القاسي «Folies de Femmes»، المغامرات الرياضية الجميلة «Le Démon de la Vitesse»، أو رواية أحد المتمردين «Robin des Bois, Le Signe de Zorro». كل شيء يحكي قصة مغامرة، تعب الناس، الانتصار القاسي للحصول على جرة الذهب. ويا لها من مشاعر قوية إذ يقول Jason بالحصول عليها! لقد حضر بذهني ذلك المشهد من «La Belle Revanche» حيث يخرج البترول المنتظر أخيراً من آباره، فلا شيء أجمل من رؤية التدفق الأسود والموحل وهو يرتفع بين الصقالات، يطلق أصواتاً كالصفارات، فيما أربعة من الرجال وسخون وعراة الصدور يتعانقون بأكتافهم، وأعينهم تتركز على التدفق العظيم، يطلقون صراخ فرح مجنون ويعلنون انتصارهم»[59].

لنتفحص هنا كيفية عمل هذه الفكرة الآخذة بالتشكل، فكرة ـ كما رأيناها سابقاً في وصفه لأقرانه ـ تفرض نفسها على الجميع بنضوجها وبقوة مقولاتها الخاصة. إن الإشارات إلى القراءات الفلسفية ترصع النص ـ إذ يذكر برغسون Bergson، آلان Alain، سوريو Souriau، وحتى مالبرانش Malebranche ـ وبالرغم

من هذه الإحالات العديدة، فهو قد وضع فلسفة سارترية في العرض، في الفعل، في الجمالية، وسط توتر حاد بين تواضع الطالب الضروري وكبرياء قدوم مفكر يتعذر كبته.

أخيراً ـ ومن سيدهش لذلك؟ ـ يقرن العودة إلى الرومانسي والمغامرة بنقد التقاليد، مستعملاً الفن السينمائي كأداة تمرد في عدته الثقافية، هنا يكتب ملخصاً: «تدان السينما، كما أدين سقراط بإفساد الناشئة، ويصار إلى اتهامها بالتحول إلى مكان للرقص، إلى ملهى [...]. يقول تولستوي Tolstoï، إن الفن الكبير الوحيد هو الفن الذي يتوجه إلى الجميع... والسينما تتوجه إلى الجميع [...] شارلوت Charlot؟ إنه ملك السينما [...] لقد خلق شخصيته، وشخصيته شارلوت المغامر، الأسطوري، لقد خلق فيلماً، فيلم الشقاء الحقيقي [...] في هذه الأفلام يعرف الأبطال الشقاء الحقيقي [...] إنهم شاحبو اللون، أليفون، وشهوانيون[...] ماذا يريد علم الاجتماع من الفن، إن لم يكن خلق حيوات تحظى بالإجماع؟ [...] لا يمكن للسينما إطلاقاً أن تصنع فناً من أجل الفن، ذلك أنها تتجه لجمهور عريض: ولذلك نجد أن الفيلم الألماني لا يكفينا إطلاقاً، ولذلك يعرف الفيلم الأميركي كل أنواع النجاح»[60].

في فترة لاحقة يعترف سارتر أن إعجابه بالسينما يتشارك مع إعجابه بالولايات المتحدة، وبشكل عام أيضاً بكل أشكال الفن التي تمثل الحداثة الأميركية. «حين كان عمرنا عشرين سنة، يكتب سارتر عام 1925، سمعنا الناس يتحدثون عن ناطحات السحاب... كان ذلك بالنسبة لنا رمزاً للرخاء الأميركي، وقد اكتشفنا ذلك بإعجاب وتقدير في الأفلام. لقد كانت هذه هندسة المستقبل، تماماً كما هي السينما فن المستقبل، وموسيقى الجاز هي أيضاً موسيقى المستقبل»[61].

بدءاً من العام 1931، وإبان سنوات إقامته في هافر، أتيحت لسارتر أن يقدم علناً شكلاً آخر من أشكال شغفه بالحديث: الرواية الأميركية. ففي كل شهر، وأمام جمهور لا نعلم من هو، كان سارتر يلقي في قاعة «Lyre» في هافر «محادثة أدبية»، ويحاول فيها أن يبث بعض النقاط عن حالة الرواية عام 1931، كما كان يحاول استعراض تطور هذا النوع منذ القرن السابع عشر، فيحلل مختلف تقنيات الرواية المعاصرة، سواء في فرنسا أو في روسيا، وفي بريطانيا الكبرى والولايات المتحدة. كما كان ينطلق في إظهار الحدود بين العلم والأدب، أو في تمرين مذهل بعلمه ومعرفته، كما بإبراز طموح مشروعه. لم يعد سارتر ذلك الطالب النهم، طالب معهد المعلمين العالي، ولم يكن ذلك أيضاً بالنقد الخصب الذي برز عام 1940، ورغم ذلك فإن ما نشهده هنا رغم السياق والشروط كان عبارة عن الآلية الثقافية نفسها، تلك الآلية المتجددة والقوية والمتطلبة.

«وبالطبع، إذا كان على الرواية أن تدرس الأفراد وسط المجموعة ومن خلال المجموعة، يقول سارتر مفصلاً، بدل دراسة المجموعة بواسطة الأفراد ومن خلالهم، فإن تقنية كاتب الرواية يجب أن تكون عرضة لتعديلات عميقة [...] فعلى الروائي أن يستمر بمعالجة الأفراد كما فعل دائماً؛ على فنه فقط أن يجعلنا نشعر في كل لحظة أن طاقة المجموعة القوية هي التي تقف خلف الفرد [...]. والمسألة التي طرحت في المرة الأخيرة كانت التالية: كيف يمكن صهر الكون في العمل الفني، الكون الذي يعتبر وحده حقيقياً، أما المواضيع الفردية فتبدو كنماذج عابرة في هذا الكون؟ هكذا نرى أن الموضوع الذي نعالجه الآن ليس مختلفاً. إنه فقط لا يحظى باتساع كبير. فالواقع أن الرواية الاجتماعية المعاصرة

(الرواية الروسية على سبيل المثال، أو جزئياً، الرواية الأميركية) لم تعد تدرس الأفراد بقدر ما تدرس البنى الاجتماعية. كيف يجب أخذها حتى نحفظ للعمل الفني وحدته؟ يجب أن نسجل فعلاً، أنه إذا كانت المجموعة موجودة فعلياً، فإن وجودها ليس محسوساً. إننا لا نتعرف عليها إلا بمفاعيلها، ومفاعيلها هي حقائق فردية»[62].

كما أنه درس مسألة العلاقات بين الفرد والمجموعة، متخذاً لذلك مثالاً «Hommes de Bonne Volonté» وهي رواية «Jules Romains» ـ معتبراً إياها وبعباراته رواية هزيلة ـ إلى جانب رواية «John Dos Passos» بعنوان 42e Parallèle التي يعطيها قيمة أكبر. «إن الفرد مستغرق في العالم» هكذا تقول ملاحظاته، «يجب أن نشعر كم هو صغير الرجل بين أقرانه المشابهين له، ومع ذلك فهو محكوم من الآخرين [...]، أن نحفظ لكلٍ شخصيته الفردية (خلافاً لـ «Dreiser»)، [...] هكذا نجد أن كل شيء قد وصف تجاه الفرد. في كل مقطع يستخدم فرد كمركز مؤقت [...] موضوعية مطلقة عند «Dos Passos». لا نحكم إطلاقاً. أظهر الشخصية وهي تحاكم نفسها، وقدم وصفاً دون إعطاء رأي [...]»[63].

هكذا، وأمام جمهور محدود أتى ليستمع إليه في هافر، وبعد سنوات أربع، يأتي إعلان مقالته الشهيرة عن «Dos Passos» والتي طبعت في NRF والذي انتهى بهذه الخلاصة ـ الإعلان: «كم هي بسيطة، هذه الوسيلة، وكم هي فاعلة؟ يكفي أن نروي حياة ما بتقنية الصحافي الأميركي، حتى تتبلور الحياة في الاجتماعي [...] أنا أعتبر «Dos Passos» أكبر كاتب في عصرنا»[64]. نحن نعلم لاحقاً، أن سارتر قد طبق هذه الوسائل على روايته «Le Sursis».

الفصل الحادي عشر

سنوات الحرب: لا خائن ولا بطل

حين كانت دراستي عام 1982 قيد التحضير، كان الوقت غير ملائم تماماً على ضوء هذه المرحلة. حينها أصدر الملازم غيرهارد هيلر (Gerhard Heller)، وهو شخصية ذات ماضٍ تاريخي مثقل، كتاباً تضمن مذكراته بعنوان «ألماني في باريس»[65]. فقد عرف بأنه من نفذ الرقابة على الأدب الفرنسي وقد عاشر في باريس إبان فترة الاحتلال الألماني العديد من الكتاب الفرنسيين - مورياك Mauriac، بولهان Paulhan، جوهاندو Jouhandeau، دريو Drieu لاروشيل La Rochelle وآخرين. كان كتابه إذاً، منتظراً بكثير من الاهتمام والحشرية. فهو يروي على سبيل المثال أنه حين كان يجلس أحياناً وبلباس مدني في مقهى «Flore» بين 1942 و1944 كان يرى سارتر يجلس هناك ويعمل. وفي مكان آخر لاحقاً وفي حديث معه يؤكد هيلر Heller «أن دريو (Drieu) قد أعاد افتتاح «NRF» لقاء تحرير بعض الكتّاب الأسرى ومنهم سارتر». بعد وقتٍ من ذلك وبخصوص هيلر نقرأ في الصحف، أن سارتر كان إبان هذه الفترة «من الأشخاص الأثيرين لديه!».

في دفاعه، لم يكن هيلر يأمل بأن يقوم بعمل المؤرخ؛ ومع ذلك فإن كتابه قد فتح الطريق أمام كل أنواع الانحرافات الغريبة،

وبانزلاقات متتابعة، كما كان الحال عادة. إذاً وفي هذه الفترة وفي العديد من التأويلات التي أثارها سلوك سارتر إبان الاحتلال، نجد الشك يحوم حولها. من هنا كان قراري أن أقوم ببحث عن سارتر بشكل كلي؛ وبدايةً آثرت البحث في ما أثير حوله من أسطورة. لذا توجب عليَّ أن أذهب للبحث في الأرشيفات، وأن أجد وثائق وشهادات، وأن أعاود البحث عن الشهود، فأسائلهم، وأنا أقوم بعمل كلاسيكي كمؤرخة مع مقارعة المصادر، مع قيامي بتجميع وتحليل كل النصوص التي أنتجها سارتر إبان هذه الفترة، من نصوص خاصة ومراسلات «Carnets de la Drôle de Guerre, Lettres au Castor et à Quelques Autres» قطع مسرحية (باريونا Bariona، الذباب Les Mouches، الأبواب المغلقة Huis clos)، سيناريو أفلام (تيفوس Typhus، نهاية العالم La Fin du Monde، الألعاب انتهت Les Jeux sont faits) فلسفة (الوجود والعدم L'Être et le Néant)، روايات (طرق الحرية Les Chemins de la Liberté)، نقد أدبي (pour Comœdia، الرسائل الفرنسية السرية Les Lettres Françaises Clandestines، دفاتر الجنوب Les Cahiers du Sud، شهادات، أشعار 44)، نقد سينمائي (الشاشة الفرنسية) مقابلات «Combat»، محاضرات في الفلسفة (ليسيه باستور وليسيه كوندورسيه)، دون أن ننسى النصوص السياسية المتعددة التي حررت في مختلف شبكات المقاومة التي أسهم فيها سارتر.

بين الشهود الذين ساعدوني على إعادة تكوين مكانة سارتر في فرنسا إبان الاحتلال، قابلت كل من: كوليت أودري Colette Audry، جان بالادير Jean Balladur، جاك ـ لوران بوست Jacques-Laurent Bost، جان بريلر ـ فركور Jean Bruller-Vercors، كريستيان كاساديسوس Christian Casadessus، جورج خازيلاس Georges

Chazelas؛ جان شولير Jean Choulcur، جاك دبي - بريدال Jacques Debû-Bridel، دومنيك وجان - توسان («توكي» Dominique et Jean-Toussaint «Touki»)، ديزنتي Desanti، سيمون دفواسو Simone Devouassoux، بيير إيسلر Pierre Isler، جان - دانيال يورغنس Jean-Daniel Jurgensen، مدام بيير كان Mme Pierre Kaan، جان لسكور Jean Lescure، راوول لڤي Raoul Lévy، روبر مزراحي Robert Misrahi، كلود مورغان Claude Morgan، بيير بيغانيول Pierre Piganiol، جان بويلون Jean Pouillon، ج. ب. بونتاليس J.-B. Pontalis، جان رابو Jean Rabaut. كما أني راجعت الأرشيف الوطني، وأرشيفات التعليم الوطني، وأرشيفات كل من بولهان Paulhan، وبالادير Balladur ومدام بيير كان، وكذلك أرشيفات المؤرخ الممتاز لتلك الفترة جيرار لواسو Gérard Loiseaux[66]. كان عليَّ أن أرفض القراءات الجزئية التي تقوم على معاينة أجزاء من المسار السارتري، وعلى عزله من سياقه وعلى تمجيده بهدف تلوين مجمل البحث. كما توجب عليَّ أن أحلل وفي وقت واحد كلية كتابات سارتر ونشاطاته إبان هذه الفترة. وحده العمل من هذا النوع، هذا ما فكرت فيه في حينه، هو القادر على الإسهام في إجراء تقطيع لطبقات التأويل المتتابعة وللحواشي التي تجمعت على مر السنين، وقد سمحت بوقوع انحرافات مثل التأكيد الذي هو: «أن سارتر كان صديقاً حميماً للقائد هيلر!». ثمة شهادة واحدة، هي شهادة سيمون دي بوفوار في «La Force de l'Âge»، أثارت قلقي: وبدءاً من اللحظة التي وجدت فيها أخطاء تاريخية وتقاربات وقائعية، قررت أن لا أعود إليها إلا بالنسبة لعناصر لا قيمة لها في مشروع سارتر على مدى هذه المرحلة.

بعد الانتهاء من هذه الأبحاث، أصبحت في وضع يؤهلني القيام بتحليل يتناول موقف سارتر إبان فترة الاحتلال. فما هي

النتيجة التي توصلت إليها؟ إلى اليقين بأن سارتر لم يكن بطلاً، ولا كان جباناً أيضاً. ومع ذلك فقد شغل موقفاً لا لبس فيه في موقف مناهض للمحتل ومناهض لروحية [حكومة] فيشي Vichy منذ خروجه من معسكر الاعتقال عام 1941، إذ شارك مع مجموعة المقاومة (اشتراكية وحرية)، وكان هدفها إقامة الاشتراكية في بلد متحرر من جديد من الفاشية. هذا البرنامج الطموح كان يتضمن أيضاً مشروع دستور لفرنسا ما بعد الحرب، أسهم سارتر في تحريره في جزء كبير منه. «هتلر Hitler يقوم بإبعاد رجالنا، يكتب سارتر على سبيل المثال، إنها حالة وقائعية لا يمكن لنا القبول بها. إذا قبلنا بنظام فيشي، فلن نكون رجالاً أبداً: لا تواطؤ مع المتعاملين. لأنه علينا منذ الآن أن نبني مجتمعاً لا تكون المطالبة فيه بالحرية كلمة لا معنى لها...»[67].

ضمت المجموعة حوالى خمسين عضواً (من أساتذة وطلاب) وهم يتحدرون من الفاشية (Marrot) والماركسية (مارلو - بونتي Merleau - Ponty)، بل من التروتسكية، تحلقوا حول سارتر المناهض للشيوعية ومن أنصار برودون. ربما كانت هذه المبادرة غير متوقعة وغير ناضجة، إذ لم يتح «للاشتراكية والحرية» أن تخلق طريقاً ثالثاً بين تياري المقاومة العاملين آنذاك: الديغولية والشيوعية. انتهى الأمر بالمجموعة للانحلال، بل إن بعض أعضائها أمثال دومنيك وجان توسين دينرتي Dominique et Jean - Toussaint Desanti قد قرروا الانتقال إلى المقاومة مع الحزب الشيوعي في منطقة الجنوب. أما سارتر فقد قرر اختيار أسلحة أخرى لمواصلة الحرب، بادئاً بلقاءات مع جيد Gide، ومع مالرو Malraux في المنطقة الحرة منذ آب/أغسطس 1941، في محاولة منه لإقناعهم بالانضمام إلى المقاومة الفاعلة.

بعد ذلك استمرت نشاطاته في المقاومة السرية في ربيع

1943 حين عمل مع مجموعة AGATE (اتحاد مجموعات العمل التقني) فقام بمساعدة صديقه بيير كان (Pierre Kaan) الذي صار في هذه الأثناء أحد المقربين من جان مولين Jean Moulin، على القيام بعمليات تخريب ضد زوارق الإنزال في سدود فارنون Vernon. تمحورت هذه العمليات حول جماعة من خريجي قسم العلوم في معهد المعلمين العالي أمثال: بيير بيفانيول Pierre Piganiol، بيير مرسيه Pierre Mercier، وريمون كرولون Raymond Crolant، وقد ارتبط أعضاؤها بشبكة «Vélite - Thermopyles» كما عملوا على خلق شبكة مقاومة في كوريز Corrèze، قبل أن تتوقف بشكل مأساوي في كانون الأول 1944، بعد مصرع 41 من الشبان الملتحقين بها[68].

خارج هذه الالتزامات السياسية، قاد سارتر معركته على طريقته، على الجدول الإيديولوجي، مع انقطاع للكتابة، وبإنتاج غزير، أشرنا إليه أعلاه. هذه النصوص، إذا ما فسرت من منظور فينومينولوجي، أي إذا ما استعدنا إعادة بناء وجهة نظر سارتر انطلاقاً من منطقه الداخلي، فإن ذلك لن يترك أي شك على خياره للعصر. ثم إن تجربة الأسر قد مثّلت بالنسبة له «انقلاباً في الاجتماعي» على الصعيد السياسي، و«يقظة في مجال التاريخانية» على الصعيد الفلسفي.

لنذكّر بكتابه «الذباب» الذي حاول أن يحارب ضد «مرضى الندم، هذه المجاملة مع الخجل والندامة» الذي يشكّل روحية فيشي. لنذكّر بنصه «باريس تحت الاحتلال»: «لم نكن أحراراً في وقت من الأوقات كما كنا تحت الاحتلال الألماني. لقد أضعنا كل حقوقنا، وأولها حق الكلام. كنا نضرب على وجوهنا كل يوم، وكان علينا أن نسكت [...] في كل مكان، على الجدران وفي

الجرائد وعلى الشاشة، كنا نجد ذلك الوجه الذي حاول قامعونا إعطاءه عنا؛ وبسبب ذلك كله كنا أحراراً، ذلك أن السم النازي كان يزحف حتى إلى أفكارنا، وكل فكرة صحيحة كانت انتصاراً، ذلك أن الشرطة الكلية القوة كانت تبحث عن إلزامنا بالسكوت. فكل كلام صار كلاماً قيّماً، إنه بمثابة إعلان مبدأ. ولاننا كنا مطاردين، صار لكل حركة من حركاتنا ثقل الالتزام»[69]. نذكّر أخيراً بالنص القوي جداً حول Drieu la Rochelle، في الرسائل الفرنسية السرية.

في نهاية بحثي الاستقصائي توصلت إلى إعادة عناصر ذات دلالة حول وضعية الرفض. عناصر متفرقة، دون شك، من خلال نشاطاته كأستاذ. يكفي أن نقرأ تقرير التسجيل في 17 آذار/ مارس 1942، لنعلم أن «حكومة فيشي» قد اعتبرت الكاتب عنصراً متمرداً يجب إعادته إلى الانتظام: «السيد سارتر، كما كتب رئيس أكاديمية باريس المسمى من قبل حكومة فيشي، جيلبرت جيدال Gilbert Gidel، يبدو أنه فهم وهو الذي نشر كتابيْه بمنشورات NRF، «الجدار» والغثيان»، أن هذه الأعمال مهما كانت الموهبة التي يشهد له بها، فهي ليست من الأعمال التي يؤمل أن تكون قد كتبت من جانب أستاذ، أي ممن هو مسؤول عن الأنفس. على السيد سارتر أن يتأمل بالنسبة لهذه المواضيع ببعض الأسطر من السيد «André Bellesort»، وأن يهتم بسير مهمته ووجوده»[70]. عودة غريبة للأشياء، أستاذ سارتر القديم كان قد توفي قبل أيام من ذلك، وفيشي قد قدم له تقديراً لاحقاً، حيث يسجل حضور برازيلاخ Brasillach.

يكفي أن نسمع تلامذته القدامى الذين تذكروا جميعاً افتتاحية واستعداد وكرم الأستاذ، الذي يمكن التوجه إليه بأي كلام وأن يسأل عن أي شيء، مذكرين بما فعله جان بالادير إذ طلب منه ذات يوم أن

يستقبل أحد أصدقائه: من الأهل من أصل تركي، من اليهود المهاجرين، الشاب مزراحي الذي قرأ لتوه «الوجود والعدم» وكان يأمل بأن يقابل صاحب هذا الكتاب. «تعال إلى الطابق بين الرابعة والخامسة» هذا ما أجاب به سارتر. الفلسفة أسئلة شخصية، لقد صدر قانون الخدمة وكان سارتر قلقاً: «عد لتراني، يسرني أن أتحدث معك»؛ وهكذا من مقابلة إلى مقابلة وسارتر أخذ علماً شيئاً فشيئاً بأن هذا الشاب وهو في صف البكالوريا يتهيأ لترك دروسه، ليتابع أعمالاً صغيرة تساعده في كسب عيشه: «يجب أن تتهيأ للتأهل»، قال سارتر بقناعة. عبارة خجولة، ثم عينية، وكان سارتر يدفع شهرياً لمزراحي حتى سنوات التأهل.

أما مفاجاتي، فكانت الشبهة التي تلصق بسارتر وأنه كان مخادعاً، وبالشكوك حول تصرفه طيلة سنوات الحرب، أنه عرض طالما كان مؤلماً في وسط فرنسي يلعب دور الرقابة المتبادلة[71]. لم يتسنَّ لي كلياً أن أطلع على كامل الأرشيف الذي جمعته، ولا على مجمل المحاضرات التي ألقاها سارتر بين 1942 و1944 في ليسيه كوندورسيه، آمل في السنوات القادمة أن أتمكن من إعطاء معلومات جديدة في هذا الملف.

الفصل الثاني عشر

الستاليني المعتدل

عام 1945 فيما كان معظم المثقفين الفرنسيين ينتسبون إلى صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، على أساس انطلاقة جديدة بعد الحرب، راح سارتر يطور نظريته في الالتزام، جامعاً حول مجلة «الأزمنة الحديثة» طاقات من أجل حل رموز العالم المعاصر. وفي «تأملات في المسألة اليهودية»، مركّزاً على التخلي عن تابو التشارك. «لم تكن علاقاته مع الحزب الشيوعي الفرنسي سهلة»، هذا ما كتبه جورج مارشيه Georges Marchais السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي غداة وفاة سارتر[72]، منتهزاً المناسبة ليحيّي «أحد أكبر العقول في عصرنا». بعد هذا الانصاف الذي أعقب المناسبة، هل ننسى الوقت الطويل من التوترات؟ فالصور الأكثر تعقيداً قد تتابعت من خلال هذا التوازي بين مجموعة الأزمنة الحديثة والحزب الشيوعي الفرنسي. فالفترة هذه شهدت على التوالي صدامات، وكراهية، والتواطؤ والاقترابات المفاجئة، ثم القطائع الجازمة، مع الاحتقار أو التجاهل المتبادل أحياناً.

حين ابتدأ التاريخ قبل الحرب لم تكن شهادة سارتر تجاه السياسة إلا ذات مصلحة بعيدة. وما بين الحربين، ساعة التعاطف

مع الاتحاد السوفياتي والمثاليات المتسارعة، كان انسحاب سارتر واضحاً. وعلاقته بالحزب الشيوعي إبان هذه الفترة ترجمة بلا رافضة: بول نيزان. وسارتر يروي بدوره، مع بعض المزاجية دون شك، كيف كان ينظر إلى صديق مراهقته، وقد أصبح عام 1929 شيوعياً، ثم صحافي الحزب: «كنت أعتبره ـ يكتب سارتر، الشيوعي الكامل». وكان ذلك ملائماً: لقد صار في نظري الناطق باسم المكتب السياسي. كنت آخذ طباعه، وأوهامه، وعبثه بوصفها مواقف مخططاً لها من مكان أعلى. «[بعد المعاهدة الألمانية ـ السوفياتية] علمت من الجرائد أن الناطق باسم المكتب السياسي قد ترك الحزب، معطياً هذه القطيعة ضجة كبرى. إذاً، لقد كنت مغشوشاً بكل شيء، ومنذ زمن طويل...»[73]. لا شيء يستحق المعاينة، فقلة اهتمامه وجهله بالآلة الشيوعية، وبكل مؤسسة سياسية، يبدو هنا بكل وضوح.

في كل الأحوال لم تكن العلاقات على هذه الدرجة من السهولة بين سارتر «الأستاذ الصغير» اللامسيّس وبين نيزان صحافي الحزب. فهذا الأخير وفي إحدى رواياته «حصان طروادة» يصف سارتر بالبرجوازي الصغير الرجعي، وتشاؤمه الجذري يدفعه للالتحاق بأعداء الطبقة العاملة: تلك كانت خاتمة الرواية. تحت هذه الإنذارات يُفتتح حوار الطرشان الذي سيمتد قرابة 40 سنة، بين سارتر والحزب الشيوعي الفرنسي. وهي مرحلة مرّت بحالات متعددة وأدت إلى علاقات معقدة. عام 1941 و1942 كان نشاط الفيلسوف موازياً لشبهات الحزب تجاهه. إنها مرحلة تساؤل ووقوع في الدوامة بالنسبة للحزب الذي بدأ العمل السري منذ العام 1939، وكان حزباً منقسماً من خلال تحيز زعمائه، ومن خلال التوترات الداخلية، العادية وغير العادية، وتصفية الحسابات

من كل الأنواع. وكما هو الحال باستمرار في هذه المراحل من العزلة لا تكون الصراعات مع غير الشيوعيين صراعات هادئة: وبقدر ما يكون الحزب ضيّق التفكير بقدر ما تصبح علاقاته علاقات متعصبة. كذلك أدى الاتفاق الألماني - السوفياتي إلى ضعضعة المناضل، وصارت الأوامر التي تعطى من فوق أصعب من أن تكون عادية: فالنزاعات الأكثر فوضوية صارت واضحة والهجومات باتجاه الخارج صارت ملموسة. أول المتضررين، الاستقالات التي أعقبت الاتفاق بالدرجة الأولى: توريز يتصدر الهجوم ويشن هجوماً قاسياً على نيزان، ناعتاً إياه، من جملة ما ينعته، «بالكلب الفاسد»[74] الذي يقبض من وزارة الداخلية. مات نيزان على الجبهة عام 1940 وعندما عاد سارتر بعد سنة من ذلك من معسكر الاعتقال، كانت الهجومات التي انصبت عليه من جانب الشيوعيين، في جزء منها دون شك، مرتبطة بقضية نيزان.

بعد خروجه من الأسر، عمل سارتر في المجال السياسي. فمن داخل مجموعة المقاومة (اشتراكية وحرية)، حاول في وقت ما أن يتحالف مع الشيوعيين. مما لا شك فيه أن مشاركة سارتر في نشاطات المقاومة السرية هذه قد مثّلت أولى خطواته في مجال العمل السياسي، بإمكاننا أن نتوقع من جانبه شيئاً من عدم المهارة، ومع ذلك - فأي حذر! لنترك سارتر يحكي بنفسه عن الحديث: «أجاب الشيوعيون المبعوث الذي كان من قِبلي: «إحذروا سارتر فلقد حرر مقابل خدمات قدمها للألمان. إنه جاسوس يريد إعطاء معلومات عن كيفية سير العمل في المقاومة...»»[75]. ثمة هجاء يدور حوله في منطقة الجنوب لاستكمال الشبهات، إنها عودة مفاجأة جداً لسارتر: فقد سرت ضجة تقول إنه قريب من هيدغر، في مفاهيمه الفلسفية، إنه إذاً نصير للاشتراكية القومية

(النازية). أما مجموعته في المقاومة فقد انتهت من تلقاء ذاتها من خلال البحث عن طريق ثالث مستحيل بين الديغوليين والشيوعيين.

شكّلت سنوات 1943 ـ 1944 مرحلة تعايش وتسامح. فمنذ شهر حزيران 1941 ومع دخول الاتحاد السوفياتي الحرب بدأت الريح تدور. حينها، وبسرعة أخذ الشيوعيون الالتزام وبكثرة وبنشاط في المقاومة، باحثين الانفتاح على تحالفات واسعة. انتهى الإبعاد! هكذا وجد سارتر نفسه ومنذ بداية سنة 1943 يعمل في اللجنة الوطنية للكتاب مع رفاق شيوعيين، مع انزعاجه أول الأمر بسبب الاتهامات التي ألصقت به. فالمرحلة هذه لم تكن شيئاً آخر سوى هدنة سحرية: وسيكتب سارتر أربع مقالات في «Les Lettres Françaises Clandestines»، إلى جانب إلوار (Éluard) وأراغون Aragon، حتى لو فضل الجدال الحاد ضد دريو (Dricu)، على الغنائية السياسية ـ الوطنية، وحتى لو كان صوته قد ظل هامشياً، فإن مرحلة التحالف هذه قد دامت لسنتين... حتى تحرير باريس.

في السنوات الثماني التالية (من 1945 حتى 1952)، وفي وقت انضمت غالبية المثقفين الفرنسيين إلى الحزب، كانت المرحلة بينه وبين الحزب الشيوعي مرحلة صدام وكراهية. كان سارتر في طريقه نحو الشهرة، إنها ثورة الوجودية، وبداية مجلته «الأزمنة الحديثة» ومضاعفة المواقف التي اتخذها، والمحاضرات، والمقالات والرحلات، إلخ... ثم إنها المرحلة التي كان هو فيها العدو رقم واحد للشيوعيين: «إنه نبي مزيف يعادي الماركسية» هذا ما قاله غارودي[76]: «حيوان خطير»، محاط «بزمرة من البرجوازيين المضطربة تنظر بعين مرة وأصحاب أقلام غزيرة، وذراع رخو...»، هذا ما أكده جان كانابا (Jean Kanapa) الذي كان تلميذاً له[77]. وفي

جريدة «Humanité» يؤكد غي لكلرك Guy Leclerc أن سارتر، وفي «الأيدي القذرة» «قد باع نفسه بثلاثين من الفضة وبصحن من العدسات الأميركية»[78]. ثمة نمطان من الانشقاق بين سارتر والحزب الشيوعي الفرنسي في تلك الفترة، الانشقاق الأكثر عنفاً: انشقاق له طبيعته الثقافية والفلسفية، وقد حدث ذلك في وقت كان فيه الشيوعيون قد تركوا الحكومة الفرنسية وكان الحزب يشهد مرحلة تشدد. وصراعات من جانب آخر ذات طبيعة سياسية، لأن هذه المرحلة قد شهدت سارتر يقود حركة RDR في محاولة منه لإيجاد طريق ثالث، ولكن هذه الحركة سرعان ما فشلت. ثم إنها المرحلة التي شهدت سارتر يساوم على وضعيته تجاه الحزب الشيوعي. لقد قاد معركة على يسار الشيوعيين، دون أن يحتذي بهم.

ثم أتت بعد ذلك أعوام 1952 إلى 1956، سنوات رفقة الطريق الأربع. فكان توقيف جاك ديكلو (Duclos) الجائر، بعد قضية عرفت بقضية «الحمام الزاجل» ما أثار رداً فظاً من سارتر «الذي استطار غضباً» ليطير لمساعدة الشيوعيين الذين يهاجمون دون حق: «كان عليّ إما أن أكتب أو أن أختنق». هذا ما شرحه ليعود ويكتب «الشيوعيون والسلم»[79]. وكان ذلك من أولى محاولاته في التأمل العميق في علاقاته مع الشيوعيين. «إن المناهض للشيوعية هو كلب»[80]: ظلت العبارة شهيرة، وهي تشير إلى العصر. مؤتمر في فيينا، رحلات إلى الاتحاد السوفياتي، بل إن سارتر سيصبح نائب رئيس رابطة فرنسا ـ الاتحاد السوفياتي. تشارك حذر رغم كل شيء، وسينتهي بشكل مفاجئ كما ابتدأ مع اجتياح السوفيات للمجر عام 1956. باندفاعه نحو المعارضة، سيلاقي الحزب الشيوعي في منطقه، المنطق النقدي لجماعة «الأزمنة الحديثة».

بتركه محور الحزب الشيوعي الفرنسي، بدأ سارتر مرحلته في تبني قضايا العالم الثالث، وهو يصف في مقالته «شبح ستالين» أسباب قطيعته النهائية مع الحزب الشيوعي الفرنسي. «اليوم نعود إلى المعارضة [...] ونحاول المساعدة في فك ارتباط الحزب الشيوعي الفرنسي بالستالينية»[81]. أو أيضاً: «مع الرجال الذين يديرون الحزب الشيوعي الفرنسي في هذه اللحظة، يستحيل استعادة العلاقات. فكل حركة من حركاتهم هي نهاية 30 سنة من الكذب والتصلب...»[82]. لقد تحرر سارتر من الوهم: والحزب الشيوعي يبقى بالنسبة له حليفاً، وإن كان حليفاً مشكوكاً فيه. «فالأزمنة الحديثة» ظلت ترى في الحزب وسيطاً تجاه الطبقة العاملة، ولكن بالطريقة نفسها التي يظل الاتحاد السوفياتي فيها وسيطاً تجاه بعض حركات التحرر الوطني. فمنذ الآن وصاعداً سيتوجه سارتر نحو العالم الثالث: تأييد قوي لكل حركات التخلص من الاستعمار: حرب الجزائر، كوبا، حرب فيتنام، لقاءات مع فانون Fanon، ولومومبا Lumumba، ومهاجمة منتظمة لسياسة الشيوعيين حول هذه المسائل. وفي الوقت نفسه تابع سارتر اكتشافه للعالم باتجاه كل ما يتحرك، منبهاً إلى حركات التمرد الاجتماعي مسجلاً تشاؤمه الذي بدا واضحاً تجاه الاستعدادات المؤسساتية السياسية.

ابتداءً من 1968، دخل سارتر سنواته إلى جانب التيارات اليسارية. فاقترب من الماويين بقدر ما كان هؤلاء الأقدر على ترجمة العفوية والغليان الاجتماعي. تبعاً لمنطق الدوائر ذات المركز الواحد والأكثر قرباً من عالمه - الذي يشكّل واقع إدراكه للعالم - راح سارتر يهتم بكل الأمور الهامشية في فرنسا: بالمساجين، باللواطيين، إلخ، مقدّماً لهم الدعم العام. لقد شرع

العامل مناضلاً للمرة الأولى في حياته مع مجموعات مقموعة جداً مثل اليسار البروليتاري، ومجموعة الثورة، وسيسهم في خلق وكالة أنباء وجريدة «Libération». أظهر سارتر تأييده الرسمي للمنشقين السوفيات معترضاً على مناهضة الساميّة في الاتحاد السوفياتي، ثم أعلن بوضوح في نهاية حياته موقفه من أجل اشتراكية من نمط تحرري. فللمرة الأولى صار سارتر لا يرى في الحزب الشيوعي المعبِّر، بالجيد والحسن، عن الطبقة العاملة. فمنذ الآن وصاعداً غاب الحزب عن أفقه. فالأوراق السياسية قد اختلطت، وسارتر صار أكثر قرباً من المؤسسة. وحين ذهب مستنداً إلى برميل ليخطب في العمال الشيوعيين في بيلنكورت (Billancourt) باسم اليسار البروليتاري، كانت ردة فعل الحزب ضعيفة. ففي نظر الشيوعيين بالذات تحوّل الحزب إلى بناء، بناء من يسارية لا تستعاد.

مسار معقد، مسار متعرج يتناسب مع تحولات تطور نشاطات سارتر بالذات. مسار بات علينا الآن أن نؤوله وأن نحلله، وأن نسبره على ضوء تذبذب خط الحزب الشيوعي وتحالفاته التاريخية. وقبل كل شيء لماذا لا نأخذ بعين الاعتبار النقد الأول المهم الذي كان سارتر موضوعاً له، والذي كان مصدره بطريقة متكررة من مناضلين شيوعيين قدامى؟ لنأخذ على سبيل المثال صيغة إدغار مورين Edgar Morin الذي استخدم في وصفه لسارتر مفهوم «hypostalinien» بدل استعمال «hyperstalinien» الذي نفى وجود معسكرات الاعتقال ويدعم الاتحاد السوفياتي بشكل أعمى - والستاليني السوبر هو من يقبل كل الانتقادات تجاه أول بلد اشتراكي لكنه لا يستمر بجرأة في البحث عن الثورة في كل مكان من العالم. انتقادات لسارتر صارت سخيفة وقد اكتملت

قبل بضع سنوات. لقد تم إرساؤها بالعقل وبعلم النفس. وبشكلها الأكثر تطوراً فهي انتقادات تنتظم تبعاً لأبعاد ثلاثة: سياسية، ومعرفية، وتحليل نفسية (تقريباً).

النقد السياسي: لعب سارتر على مرّ الوقت وبشكل متجدد، دور «فورييه (fourier) الشيوعية، بشكل كامل أول الأمر ثم إبان المرحلة الرابعة (بين 1952 و1956)، ثم لاحقاً إبان اتخاذ موقفه من الصراعات العالمية الكبرى، لعب الدور نفسه: «الولايات المتحدة، إنها العدو...» دور بارع بسذاجة، الأمر الذي دفعه على الدوام للدفاع عن الحزب الشيوعي الفرنسي ضد الهجمات الأولية، وإلى مساندة حركات التحرر بطريقة متمايزة، مع تفضيل واضح، تفضيل لمن يعارضون الإمبريالية الأميركية، ثم أخيراً لإعلان الماركسية «أفقاً لا بد منه في عصرنا»، مبقياً بذلك الأنتلجنسيا على تبعية دائمة مع الشيوعية. دون علم منه كان حضور سارتر، وهذه هي أطروحة آني كريغل (Annie Kriegel)، يلعب دور نوع من «معلم التنظيم» في الحزب الشيوعي الفرنسي. وهو حضور خطر بقدر ما يبدو بريئاً ومتعاطفاً، تقوم وظيفته على الإحاطة بالمعدل الثقافي بتبعية لا تخدم على المدى الطويل سوى مصالح الاتحاد السوفياتي من خلال نزع سلاح من يحاربون بشكل قوي حقيقة الغولاغ Goulag(*).

النقد المعرفي: هذا الدور البريء يتأتى قبل أي شيء آخر من «لا كفاءة» سارتر الواضحة في الحقل السياسي: وهي مقولة

(*) الغولاغ (gaulag) هو معسكر للمنفيين السياسيين في الاتحاد السوفياتي السابق. [المترجم]

تلقى صدى واسعاً في أيامنا (الأخطاء المشهورة المشار إليها أعلاه) وهذا ما يستدعي ضرورة أن نتوقف عنده.

النقد التحليل ـ نفسي: أخيراً وفي أساس تصرف كهذا نجد ذاتاً غاضبة تكره نفسها، وسارتر سيلعب كل يوم لعبة شهرته، بالمغامرة في عالم ليس عالمه، بل هو يسيطر عليه بشكل سيّئ. وبذلك، وبمازوشية أكيدة يقوم بتمزيق طبقته، وثقافته وماضيه من حيث المنشأ. ربما يستعيد وبالطريقة نفسها سلبيته لما قبل الحرب، ونصف غيابه عن حركات المقاومة. ولنقص في موهبته في السياسة، فهو يتقدم في حقل ملغوم، مقدماً نفسه ضحية تبعاً لمنطق الستالينية.

هذا التأويل الذي نجد له العديد من الأنصار في أيامنا، لا يتطابق مع الأحداث. والعلاقات التي أقامها سارتر مع الحزب الشيوعي الفرنسي لا تتقارب بأية لحظة مع هذا الافتتان المتواطئ والانتحاري، الذي تقاسمه، في سنوات ما بعد الحرب، العديد من المثقفين تجاه الحزب الشيوعي. في الواقع، فإن علاقات سارتر بالمناضلين الشيوعيين بالمعنى الحصري للكلمة كانت قليلة جداً. فهو يفهم بشكل سيّئ، بل ما هو أدهى من ذلك، فهو لا يبذل أدنى مجهود في التعرف إليهم. هذه الحالة لا نصادفها لاحقاً إبان المرحلة اليسارية حيث اقترب من المناضلين الماويين، مقيماً مع البعض منهم علاقات صداقة حقيقية، متقاسماً وإياهم ممارسة نضالية فاعلة. مع الشيوعيين لم يكن الأمر مشابهاً: وحده النقاش الثقافي هو ما كان يهمه. ثم إن أسس خطابه المقابل للماركسيين الفرنسيين ـ من كانابا Kanapa إلى ألتوسير Althusser ـ كان يقوم على تقديم فلسفة الذاتية والقصدية.

هذا ما لاحظه مارلو ـ بونتي Merleau-Ponty ـ أحد أفضل مفسري «الماركسية السارترية» ـ إذ أشار إلى الأسس العلماوية والموضوعية عند الماركسيين الفرنسيين بشكل عام. في الواقع، فإن عمق مشروع سارتر لم يكن تأسيس تفكُّر الشيوعيين بهدف التأثير في عملهم؟ فهو يقول ذلك ويردده دون انقطاع حتى إبان مرحلة الترافق معهم في الطريق، أما وحدة العمل فهو يقبلها انطلاقاً من «مبادئه» لا من مبادئهم (هذا ما شدد عليه هو بالذات). والفيلسوف قد يكرس نفسه تجاه الحزب الشيوعي، لنمط من السلوك الثقافي السائد لديه، إنه سلوك وصفه بورديو بشكل دقيق معتبراً إياه «نوعاً من التجاوز الجذري»[83]. إنه شكل من التحليل الشمولي الذي يعتاش من موضوع درسه الذي هو في الواقع إنتاج فكره الخاص. وسارتر قد تكفل بإسداء حقيقة الممارسة للحزب الشيوعي: من النافل القول إلى أي مدى كان الشيوعيون يشنعون هذا النوع من الوسائل!

ومع ذلك فقد تابع سارتر تأمله بانياً لنفسه استخدامه الخاص لحزب شيوعي يغمره بالمديح: هكذا فإن التمثل الفعلي الذي احتضنه كان الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي يشكّل نقيضاً للحزب الشيوعي الفرنسي الثقيل، القاسي والظلامي، فالحزب الشيوعي الإيطالي الجار سيحمل بالنسبة له كل علامات الذكاء والليونة، و«توغلياتي Togliatti» المحافظ لم يكن لينتقد بالقسوة التي انتقد بها توريز أو ديكلو. ولماذا، لا يجب تقبل حقيقة واضحة، وهي أن سارتر لا يشعر بالقرب من الشيوعيين إلا حين يتعرض هؤلاء للقمع؟ فالطريقة التي تبرز لنا كيف كان يهبُّ لمساعدتهم في بداية المرحلة الرابعة من حياته هي علامة تشهد على ذلك: فالحزب الشيوعي الفرنسي المرفوض والمقموع قد

صار بالنسبة له أمراً هامشياً، يتشابه في ذلك مع السود واليهود والمسجونين إلخ - وبهذه الصفة أبدى سارتر اهتمامه بهم. فإذا كانت شبكة الأمور السياسية - التي استخدمها ادغار مورين من ضمن آخرين - لا تكفي لتفسير علاقات سارتر بالحزب الشيوعي الفرنسي، لأنها لا تشير إلى نجاحات ولا إلى نمط العلاقات الناشئة بين الشريكين، فإن الحاجة باتت ماسّة لتفسير أكثر دقة.

لا يمكننا والحالة هذه أن نحجب عن تفكيرنا واقعة تبدو لنا أساسية: وضعية المثقفين في سنوات ما بعد الحرب. وبالفعل فإن نجاح سارتر الثقافي يمكن شرحه دون شك من خلال التواصل الغريب الذي نشأ بينه وبين الجمهور. ففرنسا استطاعت أن تطور بعض مؤسساتها الجامعية بطريقة نوعية. من هنا بتنا نشهد نشأة مجال ثقافي تحلّق حول «جمهورية الأساتذة» ذات التقاليد الارستقراطية والنقدية. جمهورية الأساتذة هذه استطاعت أن تبسط سيطرة لا لَبس فيها على الحياة الثقافية الفرنسية إبان الجمهوريات الثالثة والرابعة. وكان سارتر بذلك أحد أبرز منتجاتها، بل ربما كان آخر من مثّلها: ألم يبلغ أوجه في الوقت الذي شهدت فيه المؤسسة انهيارها أو تحللها؟ بكل الأحوال، وفي عصره، مثّل سارتر بشكل نموذجي سلطة المثقف النقدية، ونموذج «الهجين» - الذي يصهر وضعيات المميّز والمنبوذ - الذي ينطبق بشكل كامل على المثقف الفرنسي بعد الحرب.

يجب البحث عن هذا الحوار لا في الحقل السياسي، بل في الحقل الثقافي بشكل أكثر توسعاً. إن جعل سارتر مجرد مؤيد للشيوعيين، يعني الوقوع على المعنى الغلط، ويعني جهل الإطار العام الذي يندرج فيه اهتمامه السياسي. إن موقع سارتر إذاً يتحدّد بما يتجاوز النقاش ذا الطابع السياسي، خلافاً لآرون على

سبيل المثال. إن إطاره هو إطار فلسفي محض. ومشروعه، هو في إطار العلاقة بين المثقف والمجتمع. ورهانه، هو رهان على حقيقته «هو». من هنا نجد قلة انسجام بين هذين المنطقين، هذا أولاً، وقلة انسجام بين مستويين من إدراك الواقع السياسي. فسارتر يتابع إرث المثقف الكبير الذي ابتدأ مع فولتير وروسو، وتمت متابعته في القرن التاسع عشر مع لامارتين وهيغو، ثم وقريباً منا مع زولا Zola ومالرو Malraux وحتى مع أندريه جيد: إنه إرث المثقف الفرنسي المتنور تحديداً، مثقف الوعي النقدي للعالم، الذي لا يمكن أن تفوته أية قضية عادلة، إلى أن تدخل هذه القضايا عفوياً في دائرة الاهتمام والتأثير والفعل. من هنا لا يمكن لقضية كالاس (Calas) ولا لقضية دريفوس Dreyfus إلا أن تكونا أخوات توأم لمحكمة روسل أو للتنكيل في الجزائر. وسارتر في «بلشفيته القصوى» قد توصل كما يشرح ذلك مارلو ـ بونتي أن يجد «عملاً أو فعلاً آخر غير الفعل الشيوعي»[84].

الفصل الثالث عشر

حرب الجزائر وبدايات مناضل العالم الثالث

تعتبر حرب الجزائر أرض كل التناقضات بين سارتر وكامو. وإذا كانت هذه «حرب سارتر» على ما يقول رولاند ديماس Roland Dumas[85]، فلا شيء كان يقدر مسبقاً أن يصبح سارتر الفيلسوف المثقف رقم واحد في هذا الصراع. لا قلة معرفته بالمسائل الخاصة بالاستعمار الفرنسي في الجزائر ولا تدخله المتأخر وغير المباشر في هذه الأزمة. عام 1950 زار مع سيمون دي بوفوار منطقة المزاب في ختام رحلة سياحية أكثر منها سياسية: «كنا نعارض النظام الاستعماري، هذا ما كتبته سيمون دي بوفوار عند عودتها، لكن لم يكن لدينا مسبقاً أي حذر تجاه الناس الذين يديرون أعمال الأهالي أو الذين يديرون بناء الطرقات»[86]. ثم وفي وقت آخر لاحق، وعام 1956، حين ارتفعت الأصوات لتدين النظام الاستعماري الفرنسي، ضم سارتر صوته إلى أصوات جونسون (Jeanson)، دي بارات (de Barrat)، مندوز Mandouze، سيزير Césaire، دي ماسكولو Mascolo وعمروش Amrouche. لقد قام بذلك وكما سنرى على طريقته، دون أن يبادر إلى اللقاءات: لقد ضم صوته، هذا كل شيء. وبعد فترة مشاحنة مع فرنسيس جونسون من تشرين الثاني/نوفمبر 1956 حتى

ربيع 1959 ـ حينها سيعود إلى الصف الأول ليتنازع بقوة مع تدخل فاعل. وعام 1960 كان من هذه الزاوية سنته الكبرى. السنة التي عمل فيها بشكل كامل في السياسة، إنها السنة الأكثر كثافة في حياته. السنة التي تحوّل فيها إلى سفير ـ مضاد لفرنسا، حيث سافر إلى كوبا والبرازيل ويوغسلافيا والاتحاد السوفياتي، وهي السنة التي استقبل فيها ضيفاً رسمياً من قبل عدد غير قليل من زعماء الدول ـ مثل كاسترو Castro، تيتو Tito، خروتشوف Khrouchtchev. ثم إنها السنة التي أيّد فيها جبهة التحرير الوطنية الجزائرية. لقد صار نذير حرب لفئة كبيرة من أنتلجنسيا اليسار، وكبش الفداء عند اليسار الرجعي. «اقتلوا سارتر»! هذا ما سيصرخ به في تشرين الأول من العام نفسه المناضلون في أقصى اليمين. «لا يمكن سجن فولتير»، هذا كان الجواب الرمزي بعد شهرين من ذلك، وقد جاء على لسان ديغول.

ولأجل المفارقة فقط، فإنه في الوقت الذي كانت شخصية سارتر تفرض نفسها في أولى معاركه التي خاضها من أجل العالم الثالث، فإن شخصية كامو كانت في طور الانطفاء. كان كامو الغائب الأكبر عن أرض حرب الجزائر، وتلك مفارقة أخرى. فهل من الضرورة بمكان أن نذكر أن صبي بالكورت (Belcourt) قد جرب التوتر والألم في الأحياء السفلى من ضواحي مدينة الجزائر؟ وأنه انتسب منذ العام 1935 إلى الحزب الشيوعي الجزائري؟ وأنه كتب سلسلة هامة من التقارير الكبرى عن الجزائر عام 1939، وأن هذه المقالات التي حملت عنوان «بؤس القبيلة» (Misère de la Kabylie) قد ظلت من أفضل الشهادات وأكثرها جدية وتوثيقاً حول واقع الجزائر في تلك الفترة؟ كان كامو يعرف جيداً، وتحت كل المظاهر، السياق السياسي، الثقافي والاجتماعي،

والذي في ظله تخمّرت كل التوترات التي حرّكت الشعب الجزائري؛ كان ذلك مجالاً يحسن التعبير عنه بكل رغبته، بوصفه صحافياً، وروائياً وأخلاقياً، فكيف نفسر غيابه الغريب عن المسرح السياسي منذ اندلاع حرب الجزائر؟ انطفاء سياسي أول الأمر: «أشعر بالألم تجاه الجزائر»، هذا ما قاله ببساطة في الأول من شباط 1955، قبل أن لا يعاود تدخله إلا لمرات معدودة وبصورة تململ دائماً. كان ذلك عام 1956 ثم عام 1957. وانطفاء جسدي أخيراً: إذ أودى بحياته حادث طرق في الرابع من كانون الثاني عام 1960، وكان ذلك قبل عدة أشهر من المحاكمات الكبرى، والمظاهرات الكبرى والعروضات الكبرى التي حرّكت اليسار.

إزاء حرب الجزائر سنشهد إذاً غياب كل من سارتر وكامو. ففي تشرين الثاني عام 1954 بدأت ما عرف لاحقاً «بأحداث الجزائر». كان ذلك بعد عامين من النقاش العام بين الكاتبين عام 1954. فحتى وفاة كامو لم يكن الواحد منهما يتوجه علناً للآخر، ويبقى العام 1952 إذاً العام الذي شهد رسمياً آخر حوار لهما معاً، وكان ذلك أيضاً آخر مواجهة علنية لهما. وإذا كانا قد اتخذا موقعاً، أو إذا كان الواحد منهما قد اتخذ موقعاً معارضاً تجاه الحرب في الجزائر، فإن معارضتهما ـ أو ما حصل عام 1957، وسنرجع لذلك لاحقاً ـ كانت أشبه بحوار الطرشان من معارضة فعلية: قدر حزين، لصداقتهما، لهذا التورط النهائي، لهذا الصمت، لهذه الخلافات التي لا يمكن درؤها! مما لا شك فيه أن الخلاف بين سارتر وكامو كان خلافاً أجّجته وسائل الإعلام، التي حدت، وإن بفرح خبيث إلى اللقاءات المتخاصمة بين رجال الأدب الفرنسي. ذلك أنه لا يمكن بسهولة دفن التقاليد إلا ببطء، فنحن خلف سهام سارتر المخيفة، أو خلف كلمات كامو السامّة التي ردّ بها على

سارتر، نلمح ظلال العديد من المبارزات المعروفة، كتلك التي جعلت في تاريخنا الأدبي: كورناي Corneille يتخاصم مع راسين Racine، وفولتير Voltaire مع روسو Rousseau، وحديثاً لويس أراغون Louis Aragon مع أندريه بريتون André Breton. وحين ظهرت أولى عمليات العنف على الأرض الجزائرية، كان كل من سارتر وكامو قد دخلا في هذه الأدوار العامة، حيث كانا إخواناً أعداء وقد بات عليهما أن يعملا من أجل الأفضل. لقد انغلقا في منطق غريب، في حركات متقابلة ومتوازية: كامو الأهلي، الحساس، الممزق، الواعي كليَّةً للواقع الجزائري، لكنه سرعان ما صار الصامت والغائب. سارتر العالمي، الغريب، المنظِّر، سيصبح منظِّر اليسار الرمزي، ونبي حرب الجزائر. من هاتين الحركتين اللتين تباعدتا الواحدة عن الأخرى سنحاول التقاط بعض اللحظات وإعطاء بعض الصور.

في 22 كانون الثاني/يناير 1957 كان كامو في الجزائر. طلبت اللجنة العاملة من أجل هدنة مدنية، والمؤلفة من فرنسيين ليبراليين ومن مسلمين «من المركز» أن يحمل مؤازرة ما إلى اجتماع حلقة التقدم. كان الجو متوتراً، واليمين المتطرف قد تحرك ضد ما يعتبر خيانة تجاه فرنسا والجزائر الفرنسية. متحاشياً التهديد والضربات الخفيفة، سيقوم كامو بإلقاء كلمة قصيرة ـ عرفت لاحقاً تحت عنوان «نداء من أجل هدنة مدنية» وقد طبعت في «Actuelles II»، وفيها يقول كامو: «هاكم الرهان القاتل الذي نجد أنفسنا أمامه. إما أن ننجح [...] في الاتحاد من أجل تقليص الضرر، وأن نعزز تطوراً مقبولاً، أو أن نفشل في التجمع وأن ندرك أن هذا الفشل سيؤثر على المستقبل بكامله [...]»[87]. بعد خمسة أيام من ذلك وفي 27 كانون الثاني/يناير 1957 كان

سارتر في باريس. وفي قاعة فاغرام (Wagram) كان يشارك في لقاء واسع نظمته لجنة عمل المثقفين ضد متابعة الحرب في الجزائر. «نحن فرنسيو العاصمة، وهذا ما قاله بين أمور أخرى، ليس لنا سوى استخلاص درس واحد من هذه الأحداث: إن الاستعمار هو على وشك القضاء على نفسه بنفسه. إلا أنه ما زال يعكر الأجواء برائحة عفنة: إنه خجلنا، إنه يسخر من قوانيننا ويقزمها؛ إنه يعدينا بعنصريته...»[88]. حول سارتر، ومنذ هذه الفترة، كنا نحصد أول أصداء الندم في الجزائر، بتنا نعاين أولى المظاهرات المناوئة للعرب في فرنسا، وبتنا نرى بعين قلقة التحركات العديدة التي يقوم بها الجيش والبوليس. وكان الشك في قدوم دكتاتورية عسكرية قائماً. مع هذين الإعلانين بتنا نرى أول التصورات المتقابلة جذرياً حول القضية السياسة التي كانت مطروحة آنذاك. كامو من جانبه راح يحاول المصالحة بين الجماعتين: «نتحد لنحد من الخسائر» ـ أما سارتر فقد اتهم المستعمرين الفرنسيين معلناً عليهم الحرب المفتوحة، متهماً النظام الاستعماري القائم في الجزائر ـ «إن دورنا هو أن نساعده ليموت».

كان كامو وسط جماعته، يدرك تعقيد الواقع الجزائري، الروابط الإنسانية، والقطائع المستحيلة، ونسبية المسائل. أما سارتر، ومن باريس، فهو يحلل عن بُعد البنى الكبرى التي تحدد هذا الصراع وتعارضه بطريقة بسيطة، برهانية ومانوية. إنه حوار طرشان، بين أسطورتين، بين طريقتين في السرد وفي التعبير عن هذه الأزمة. حتى لو كان الواحد منهما يتوجه إلى الآخر بطريقة مبطنة؟ فكامو ينتقد «الذين يركنون إلى معلومات بعيدة» فيحلل لهم واقعاً لا يعرفونه إلا نظرياً: أما سارتر فهو بدوره يهاجم

هؤلاء «الاستعماريين الجدد»، الذين يحاولون مصالحة كل شيء مع كل العالم دون تمييز. وهكذا نجد «روايتين» عن أحداث الجزائر تدير الواحدة منهما ظهرها للأخرى، وبعد التقهقر أصبحت هاتان الروايتان الآن نمطين من أسطرة السياسة، مقاربتين مثاليتين رغم كل ما يستكملهما. إنها ميتولوجيا الإجماع بوجه ميتولوجيا ما هو جذري، ميتولوجيا الأخوة تجاه ميتولوجيا نهاية العالم؛ ميتولوجيا حقوق الإنسان تجاه ميتولوجيا قلب نظام العالم؛ الميتولوجيا التي تجعل العنف في كل منا تجاه تلك التي ترى العنف ماثلاً في «دكتاتورية الدولة». الميتولوجيا التي تحمد القيم مثل القلب والعقل والشجاعة تجاه تلك التي تبطل فضيحة المعارضة، وتطالب باليقين والمواجهة.

طريقتان في رواية التاريخ. وبالفعل، ماذا يعرف سارتر من الصراع في تعبيراته العينية؟ وما إذا كانت «حربه» في الجزائر قد تحددت من كراهيته للعسكريين، ومن الخوف أن تعود حكومة محافظة إلى السلطة؟ وما إذا كانت أحداث الجزائر بالنسبة إلى سارتر إلا المؤشر للفساد في فرنسا، و«لتآكلها». وجهاً لوجه، تقليدان مختلفان: سارتر أكثر ميلاً إلى الإيديولوجيا، أما كامو فكان أقرب للذرائعية وللأخلاقية. وبمساندة المثال السياسي عند كامو نوع من اليوتوبيا الاجتماعية: لنستمع إليه مجدداً في 22 كانون الثاني/يناير 1957: «نحن نتبارز بالسكين، أو تقريباً كذلك، فيما العالم يسير بسرعة الطائرة النفاثة. وفي اليوم نفسه الذي تتحدث الجزائر عن صداماتنا الإقليمية، فهي تعلن عن التجمع الذري الأوروبي... غداً وإذا ما توافقت أوروبا فيما بينها، فإن ثمة موجات من الثروات ستغطي القارة لتفيض إلى هنا، ما يجعل مشاكلنا قديمة وأحقادنا منتهية»[89]. هذا ما قاله في الجزائر أمام

جمهور مختلط. إن تحليل هذه الخطابات في سياقها التاريخي الخاص ودون الوقوع في الخطأ على ضوء مكتسباتنا الآن، يساعدنا على استعادة ما كان يجري في حينه. لقد كان كامو مذهولاً بتدخل العاطفي في حقل السياسي، ولقد كان آنذاك في طور التطور نحو نوع من اللاأدرية السياسية. أما بالنسبة لسارتر الخارج لتوه من رحلة أربعة أعوام رافق الشيوعيين أثناءها، وكان ما زال واقعاً تحت أثر الإيديولوجيا الماركسية، فقد حاول تطبيق ذلك على أحداث الجزائر. كان الرجلان، كلٌ على طريقته يحاول إعادة توازنهما السياسي.

سارتر في قاعة «فاغرام Wagram»، وكامو في «حلقة التقدم»، كانا رجلين يتابعان مسيرة سياسية موحدة في آن ومتناقضة في آن آخر. وتناقضهما في كانون الثاني 1957 كان إشارة إلى تناقضهما الدائم. لقد اختصرت الصحافة الحدث: إن الصداقة، ثم الخصام، كانا أمراً يمكن تتبعه ما بين الكاتبين. كانت العلاقة أكثر تعقيداً: فهي ابتدأت قبل 22 عاماً من ذلك. سارتر كان في الثلاثين من عمره، وكان وريث تقليد نخبوي فرنسي، طفل تربى بين الكتب، وفي مهد معهد المعلمين العالي، ثم أستاذاً للفلسفة في ليسيه هافر، لقد كان مستاءً من الريف الفرنسي ومن إخفاقاته في النشر؛ يميل إلى الفوضوية والعزلة والفردية، وكان ينظر بعين ساخرة إلى استعراضات أحزاب اليسار على اختلافها، ويستمع إلى آمال الشيوعيين الفرنسيين المأخوذين بالتجربة السوفياتية وكله سخرية على ذلك. عام 1935 كان كامو عضواً منتسباً إلى الحزب الشيوعي الجزائري، مع احتفاظه بمسافة ما تجاه الإيديولوجية الماركسية، فقد ظل أميناً لتجاربه مع اللامساواة ومع البؤس الاجتماعي. أما تجربته مع الثقافة،

والمسرح والرواية والصحافة، فقد قام باستثمارها بعطش حديث النعمة، وهو كان كاتباً منذ حداثة سنه. أمضى كامو عامين في الحزب الشيوعي ثم ابتعد عن هذه الدائرة حتى خوضه تجربة سياسية جديدة مع المقاومة. وفي هذه الأثناء صار من اشتراكيي اليسار، رفيق طريق لمنظمة (الخلية الفرنسية من الأممية العمالية) SFIO بين عامي 1945 و1946 على سبيل المثال.

في حين كان كامو حريصاً على التحرك من أجل غايات سياسية محدودة، وفي حين كان يتواجد على سبيل المثال إلى جانب غاري دايفيس (Garry Davis) عام 1948, ضمن ما كان يعرف بالاشتراكية الأخلاقية، كان سارتر من جانبه يختار اتجاهاً معاكساً. فكنا نراه وعلى مراحل يتحرك ولعدة أشهر ضمن مجموعة مقاومة صغيرة. كان ذلك عام 1941، ثم وبعد أن أحرق أجنحته في هذه الصدمة الأولى، راح ينعزل في مرحلة كتابة فلسفية كبرى: «الوجود والعدم».. كان ذلك نتاج هذه المرحلة، ثم «الأخلاق»، ثم سنشهده بعد سبعة أعوام من ذلك يتحرك مجدداً ومن جديد عبر منظور «الطريق الثالث»، كان ذلك عام 1948 أثناء عمله مع دايفيد روسيه (David Rousset) في (RDR). ثم كان الإخفاق كما إبان الاحتلال، والابتعاد عن العيني، والعزلة من أجل الكتابة الفلسفية التي صارت بديلاً، بل جواباً على الإخفاق في العمل والممارسة. حينها كتب «الأخلاق» لكنه لم يطبع كتابه هذا إلا بعد فترة طويلة، عام 1952 ـ وخلافاً لتيار معظم الكتّاب المثقفين الفرنسيين، فإن سارتر سيقترب مجدداً من الشيوعيين. تبعاً لمنطق شخصي، والمنطق أكثر موضوعية أيضاً، سيجد سارتر في البروليتاريا الفرنسية العنصر الأكثر عرضة للقمع، ولذلك أعلن مساعدته لها. هنا وفي هذه الفترة الحاسمة حصل

الاختلاف مع كامو. وهي الفترة التي شهدت قضية «الحمام الزاجل» وتوقيف جاك ديكلو Jacques Duclos. حينها شعر بالحاجة الماسة للاقتراب من الحزب الشيوعي الفرنسي. أما كامو فقد اتُّهم «بالبورجوازي»، بل إن سارتر لم يتورع عن اتهامه «بالدنيء»[90].

في تقديم كهذا، حتى لو كان قوياً فإننا بالكاد نجد في المسار السياسي بعض النقاط المشتركة، وبعض النقاط التي فرضت ذاتها أو تأثيرها حتى لو كانت دقيقة جداً. يشبه الأمر كما لو كانا قد تمشيا جنباً إلى جنب في حقول متجانسة ولكن دون حوار بينهما. كما لو كان الواحد منهما يدور حول الآخر، وكل منهما يستغرق في منطق محجوب عن الآخر. بل يبدو أن كل شيء لم يكن في وقته ولا في توقيته، ولا في تعاطفهما المتبادل ولا في شغفهما العميق. وإذا كانا قد مرّا بالأفكار نفسها، فإن ذلك كان غالب الأحيان على مسافة تقارب 20 سنة أو 25 سنة بينهما. تعلم اجتماعي وسياسي، لقاء الإيديولوجي مع الموضوعي. لكل شيء بينهما فاصل مكاني وزماني بل قد يكون معاكساً. وإذا حاولنا أن نقيِّم مهماتهما لا من منظور أدبي صرف، بل من منظور اجتماعي سياسي، فإن الإضاءة المقبولة بشكل عادي بينهما، باعتبار أن علاقتهما كانت طلاقاً فتقارباً، تصبح علاقة انفصالية. فكل الحدود مشوشة، وإننا لنجد أنفسنا أمام مسارات سياسية تتناقض جذرياً بفعل تجاربهما وأصولهما وعدتهما النظرية. والميثولوجيا ـ التي ظهرت في 22 و27 من كانون الثاني/يناير 1957 ـ لم تكن إلا نتاجاً، جوهراً ونهاية.

لنتذكّر بعد ذلك بأوقات الغبطة، بأزمنة الصداقة الوردية؟ ذلك أن كامو ومنذ ذلك العام 1938 قد امتدح عبر مقالة نشرت في

«Alger Républicain»، رواية سارتر «الغثيان»، ممتدحاً هذه الفلسفة «التي تبرز عبر الصور». مقارناً كاتبها بكافكا Kafka، ومذكّراً «بأول نداء لذهن مفرد وعظيم»[91]. ثم إن سارتر بدوره وبعد سنوات من ذلك - في عام 1943 - اقترح في «Cahiers du Sud» شرحاً لرواية كامو، «الغريب Étranger»، قيل لي إنها لكافكا وقد كتبها همنغواي Hemingway» هذا ما أكده ممازحاً، واعترف أني لم أجد فيها كافكا...». وقد اختتم بصيغة ممتازة: «رواية قصيرة لأخلاقي... والذي رغم ما فيها من بعد وجودي الماني، ومن الروائيين الأميركيين تظل قريبة جداً وفي العمق من قصة لفولتير»[92].

لنذكّر أيضاً بتجربة «الأبواب المغلقة»، التي كتبها سارتر بالأساس لكامو - المخرج - ومن أجل كامو - المفسر؟ ولنذكّر أيضاً بفريق عمل جريدة «Combat» وقد استدعى كامو سارتر آنذاك ليقدم أولى خطواته في الصحافة وليصبح محققاً صحافياً كبيراً! وبالجلسات المشتركة مع بيكاسو Picasso ومع «Leiris» أثناء الاحتلال! وبالأعياد وحفلات الرقص لاحقاً مع فرقة «Vian»! والفريق الأول الذي تشكّل حول مجلة «الأزمنة الحديثة» وقد أوكل إلى كامو؟ فالصور تتصادم، وتتراكم، طالما كان هوس العيش هو السائد بعد العام 1945، وطالما كانت مواهب كل من هذين الرائدين عاصفة بعد الحرب. فالأدب، والفلسفة، والمسرح، والنقد الأدبي، والصحافة والسياسة والسينما.. كلها حقول ثقافية استثمر فيها كل من المؤلفين، بشكل صارم وفي اللحظة نفسها وبأدوات متناسقة. فالنظرات التي القاها على العالم كل من روكنتين Roquentin ومرسولت Meursault 1938، ألم تكن نظرات بين أبناء عم؟ نظرات من وراء زجاج، نظرات يقين ممزوجة بالتنابذ؟

هذا ما تقوم به الأشياء المدمجة: فثمة نغمة مشتركة في أعمال كامو الأولى وسارتر الأولى. ثمة صداقة في لقاءاتهما الأولى، النشوات الأولى بين هذين الطالبين للذة العاصفة في ذروة النجاح، واللذين اكتشفا معاً الحريات المستعادة بعد الحرب. بالطبع. لكن لا شيء من ذلك قد أثّر بعمق على مواقفهما السياسية، وعلى قناعاتهما وعلى هندستهما الإيديولوجية الشخصية، ثم راح كل في طريقه، وعلى كرته الخاصة، دون أن يتأثر بالآخر إطلاقاً، ثم كان لهما لقاء مضطرب حملته مناسبة في محاكمة في صالة في باريس في 13 كانون الأول 1948. شارك في الحضور أيضاً كل من اندريه بروتون André Breton، ريشارد رايت Richard Wright، كارلو لفي Carlo Lévi، غيدو بيوفاني Guido Piovene. إلى جانب سارتر وكامو. إلا أن هذا اللقاء الذي أريد له أن يكون «أممية العقل»، قد ترك الانطباع بإعادة إحياء اجتماعات المثقفين الكبرى لسنوات 1930. إلا أن هذا اللقاء قد ولد ميتاً. والصراعات التحضيرية العنيفة قد جعلت بعض النزعات متعارضة تماماً، إذ كان مارلو ـ بونتي مدعواً، لكن كامو تدخل ليضع فيتو على ذلك: تمّ استبعاد مارلو بونتي. «كل الناس انفصلوا عن كل الناس»، هذا ما قاله لنا من جانبه دافيد روسيه David Rousset، أحد المنظمين لتلك الأمسية؛ «لقد كان ذلك نهاية إجماع»[93]. وبعد نهاية هذا الاجماع كان كل من سارتر وكامو وإن جزئياً الموجودين شبه الأخرسين اللذين لم يكونا هناك جنباً إلى جنب إلا بمقتضى الصدفة التي جمعت آخر تجمعات المثقفين.

بعد ذلك التاريخ أصبح مسارهما السياسي متباعداً بشكل واضح وعلى أعين الجميع. فسارتر سيغوص في مرحلة من التسارع ومن التحرك الذي يزداد قوة، ومن التدخلات الأكثر

صلابة. أما كامو بدوره فسيتأرجح وسط هذه اللا أدرية الغريبة، حيث يتلاشى السياسي لمصلحة الأخلاقي. أما سارتر، وكما نعرف، فبعد أن تطعم بالحزب الشيوعي الفرنسي ترك نفسه تبحث مجدداً عن الرغبات القديمة الفوضوية الجيدة التي عرف بها في شبابه: لقد أصبح كهلاً مستحيلاً، إذ صار يترقب كل التحركات الاجتماعية السياسية التي كانت قوية أثناء الشباب، وخيانة كل الحقائق الماضية والكراهية لكل الجذور، ولكل عزلة. لقد كانت هذه حركات برجوازي في حالة هروب، الفرح بتمزيق العقد المقدس الذي ولد في ظله. أما كامو بدوره، فباختياره للصيغة الأخلاقية بديلاً من سياسات ناعمة، فقد ظل منسجماً مع أصوله الطبقية. ومن المؤكد أن حرب الجزائر قد ظلت بالنسبة لهما سبب هذا الافتراق الذي استمر على الدوام: بين هاتين الأسطورتين في السياسة، وخلف هاتين الطريقتين في رواية التاريخ لا نجد إلا منطقين شخصيين متناقضين بشكل عنيف، ولا نجد إلا مهنتين أدبيتين متخاصمتين، مع تقاربهما، ولا نجد ربما إلا صداقة كبرى ناقصة[94].

الفصل الرابع عشر

التفكير في مستقبل الثقافة الغربية

بالترابط الوثيق مع مسألة العالم الثالث تبدو بالنسبة لسارتر مسألة مستقبل الثقافة الغربية. هذه المسألة التي تساءل عنها الكاتب منذ العام 1945 مع إلحاح ظل آخذاً بالاشتداد. في سيناريو السلسلة المتلفزة «سارتر خلال قرن» والتي قام بها سارتر بإيحاء من مارسيل جوليان Marcel Jullian 1975، وفي محاولة منه لتأكيد مكانته بالنسبة للأحداث التاريخية في هذا القرن، عاد سارتر إلى مناهضته المبكرة للاستعمار، معلناً أنه ابتداها منذ كان في الثانية عشرة من عمره، «أحد أكثر الأمور السياسية شغفاً بالنسبة لي في تلك اللحظة [...] إنه شعور أتاني عفوياً في لاروشيل La Rochelle، إذ شاهدت زنوجاً وعرباً وصينيين يؤخذون من بلادهم للعمل في مصانعنا»[95]. كذلك كانت قراءات سارتر مبكرة، خاصة قراءته للرسوم المصورة الأميركية، ورغباته القيام بالمغامرات، ومحاولاته الدائمة لقياس الثقافة الغربية على ضوء ثقافة أخرى.

لا يمكننا التوقف مطولاً حول رحلاته التي قام بها إلى الولايات المتحدة عامي 1945 و1946 لنشرح الهزة الحقيقية التي أحدثها اكتشافه لهذه البلاد، أو لنشير إلى الأثر الذي أحدثه

الاضطهاد العنصري في حدة وعيه السياسي. «ففي كل مكان، في الجنوب كان «العزل» ما زال ممارساً» ـ هذا ما أعلنه في إحدى محاضراته بعد العودة. «لا يوجد أي مكان عام نجد فيه خليطاً من الزنوج والبيض. والدخول إلى المسارح والمطاعم والسينما والمكتبات والمسابح.. إلخ، التي يدخلها البيض، كان ممنوعاً على السود. ففي سكك الحديد وفي الترامواي لهم مكانهم المنفصل، فالسود لهم كنائسهم ومدارسهم، أكثر ندرة وأشد فقراً مما لدى البيض. وقد يحصل أيضاً أن يعملوا في المصانع في أماكن منفصلة. يحرم هؤلاء المنبوذون كلياً من حقوقهم السياسية. صحيح أن الفقرة الخامسة عشرة من الدستور قد راعت «أن حق التصويت عند المواطنين في الولايات المتحدة لا يمكن أن ينتقص أو أن يرفض من قبل الولايات المتحدة أو من قبل الدول لسبب يعود إلى العرق، أو اللون أو ظروف الرق السابقة»، لكن ثمة ألف طريقة للالتفاف على ذلك[96].

من الأمور المعاصرة لهذه الاكتشافات ولهذه الابلاغات كان إطلاق مجلة «الأزمنة الحديثة» والمحاضرة الشهيرة التي ألقاها في تشرين الأول 1945 «الوجودية مذهب إنساني»، حيث أكد فيهما على ضرورة الالتزام بالنسبة للمؤلف «في مواقف» في عصره، وعلى البحث عن مكانة «الأوروبي عام 1945»، إذ جعله في مركز العالم مع القدرة على فهم «كل مشروع حتى مشروع الصيني، والهندي والزنجي»[97]. إن مكافأة المشهد الثقافي في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية لم تدرس حتى الآن كما يجب، لكنه بإمكاننا، شأن التعامل مع الصندوق الأسود، أن نأخذ فكرة عن مفتاح التطور الثقافي وعن الرسالة الأوروبية إبان هذا النصف الأخير من القرن الماضي. فقد لاحظت الصحافية الأميركية جانيت فلانر حينها في «رسالتها في باريس» في «نيويوركر»، فرنسا في

اليومي: «الآن ليست باريس هي التي تحررت بل أوروبا بكاملها، هذا ما كتبته في 24 أيار 1945. من الحكمة أن ننظر إلى باريس وأن نتساءل ماذا بقي من المدينة التي كانت في وقتها العاصمة الثقافية، العاصمة المتمدنة، باريس ليست فرحة، إنها مدينة قلقة، مشاكسة، وعلى الأرجح، إنها تتعافى».

ماذا كان في باريس وضع أولئك الذين وافقوا على تمثُّل سلبي إلى هذا الحد؟ لنحاول أن نستمع بطريقة دقيقة إلى هذه اللحظات التي شهدت طرح أكثر من سؤال حول السيطرة الثقافية، فإن ثمة ميثولوجيا ظلت على قيد الحياة بالرغم من اهتزازات آليات القاعدة، بل إن سارتر قد تساءل بدوره حول هذه المرحلة الفعلية التي سمحت في إطار الممكن الواسع جداً بإعادة اختراع العادات الاجتماعية، كما لو كان ذلك نسقاً خادعاً لم يكتمل بعد. في هذه السوسيولوجيا من الذوبان والتخفيف من الأساطير، يمكننا ربما فهم تمثلات هؤلاء الأوروبيين الذين كانوا ينتظرون أن يكون كل شيء كما كان قبل، بل أحسن، لقد عاشوا حلماً، بل إن بإمكاننا آنذاك تحليل هذا الفارق بين التمثلات الاجتماعية وبين السيرورات الاجتماعية الفعلية.

في خطاب آخر له يعود للعام 1949، يصف سارتر الثقافة بأنها: «التأمل بموقف مشترك»: «موقف كل البلدان الأوروبية، هو موقف مشترك - هذا ما يؤكده - في إيطاليا، في فرنسا، في البينيلوكس «Benelux»(*)، في السويد، في النروج، في ألمانيا، في

(*) البينيلوكس (Benelux) هو اتحاد جمركي واقتصادي أنشئ في عدد من دول أوروبا الغربية عام 1944.

اليونان وفي النمسا، إننا نواجه دائماً الموضوعات نفسها والأخطار نفسها. المسألة الاقتصادية المشتركة أولاً، أي ضرورة إعادة التجهيز، واستحالة التوجه إلى آخرين غير الولايات المتحدة، إنها أيضاً مسألة اليونانيين والسويديين. ففي كل مكان هي الكارثة نفسها التي تعاش. روتردام Rotterdam كانت شديدة الاختلاف عن فلورنسا؛ أما حالياً، فأن نتنزه في أحياء الخدمات أو في روتردام أو في هافر، فإننا نقع على المنظر نفسه الذي تولد كما لو كان ثمة هندسة إنسانية مشتركة في كل أوروبا. حتى لو كنا نسكن في مدن متباعدة، فإن حضور هذه المدن المهدمة له ثقله وهو يغيّر المنظر. إننا نعرف ما معنى المدينة المشوهة، وهذه المدينة هي أوروبية»[98].

يحق لنا أن نتساءل، كيف تحول سارتر، انطلاقاً من فلسفة الإنسان الوحيد وشغفه المتفجر من جديد والذي تميزت به تساؤلاته في سنوات 1930، نحو مزيد من الوعي والاهتزاز باتجاه الالتزام السياسي الذي صار نهائياً. فتجربة الحرب وتجربة الولايات المتحدة ستجعله يقطع نهائياً حباله مع ماضيه: فمنذ ذلك الوقت سيقترح تطوير تمثلات جديدة وتحقيق مشاريع تحالف مع فاعلين جدد، سواء كان ذلك في إطار الحياة اليومية، أو كمثقف يقدم للآخر إمكانية ضمه إلى مشروعه الثقافي أو الفكري. «إني أرى مقموعين في كل مكان (مستعمرين، بروليتاريا، يهود)، وأنا أريد تحريرهم من القمع. إن ما يؤثر فيّ ليس إلا هؤلاء المقموعون، ومن قمعهم أحس نفسي ضالعاً في ذلك. إن حريتهم هي اعتراف بحريتي»[99].

هل بإمكاننا مع ذلك أن نقلص سارتر إلى صورة مثقف يحاول أن يفهم كيف يستطيع الغرب أن يفاوض بثقافته مع بلدان

في طريق التطور؟ ألا يكمن هنا أحد الأبعاد الأساسية في فكر سارتر: أن يحاول تمتمة، أن يلمّ بالمسألة الأساسية في القرن العشرين، واقتحام العالم الثالث على المسرح العالمي، ووصول عدد معيّن من البلدان القارّات إلى موقع تاريخاني؟ هذا التحالف الأرعن، والمبالغ بعنفه، هو ما يعود حقيقة واقعة الآن. ولكن ألم يكن سارتر أول من وضع معلماً لمسألة تزداد حضوراً يوماً بعد يوم؟ إنه الموقف نفسه الذي يفرض نفسه في نظام ما هو ثقافي، وذلك حين حاول أن يفكر في العلاقة بين فرنسا والدول أو القوى القائمة. في الفجوات بين الثقافات يقترح سارتر بناءات جديدة، تمثلات أخرى من خلال توتر دائم. «إن الاحتلال قد زاد من الافتتان الذي مارسته الحياة الأميركية على المثقفين الفرنسيين، بما فيها من عنف وحركة»، هذا ما أعلنه عام 1946. «وعما قريب ستظهر في الولايات المتحدة أولى الروايات الفرنسية التي كتبت في ظل الاحتلال. سنعيد إحياء هذه التقنيات التي أعرتمونا إياها. إننا نردها إليكم مهضومة أكثر تفكراً، أقل فاعلية وأقل فجاجة، وقد تأقلمت بوعي مع الذوق الفرنسي. وبسبب هذا التبادل الذي لم ينقطع والذي جعل الأمم تعيد اكتشاف ما أنتجته ثم رمته في أمم أخرى، في هذه الكتب الغربية ستعيدون ربما اكتشاف الشباب الأزلي في هذا «النسر القديم»»[100].

الفصل الخامس عشر

تطوير ثقافة بديلة

سارتر المدهش. الذي دافع باستمرار عن شفافية مطلقة والذي يتقدم في الوقت نفسه عبر دينامية منظمة من قطيعة وانتزاع. كيف يمكن أن نتابعه؟ دينامية الانتزاع هذه عن عائلته، عن محيطه، عن بلده، وعن ثقافته ابتدأت منذ طفولته، وهي ما دفعته ليجعل الكتابة في صلب حياته ليهرب من وضعية الأشياء التي تنسجم مع الطفولة. «حقيقتي، واسمي، وسجيتي، كل هذه كانت بأيدي الراشدين». هذا ما نقرأه في «الكلمات»، «لقد تعلمت أن أرى نفسي بأعينهم؛ كنت ولداً، هذا المسخ الذي يبنونه بحسراتهم». سارتر المدهش، الذي وعى بنفسه عصابه واصفاً نفسه بالطفل المجنون الذي يخلق نفسه بنفسه والذي يتماهى مشروع حياته منذ سن الثامنة مع الكتابة مخرجاً وحيداً ولامعاً لموقعه العائلي. «أن أرسم أشياء حقة بكلمات حقة، تكتب بريشة حقيقية، هذا سيكون الشيطان ما لم أكن أنا أيضاً حقيقياً. باختصار، إني أعلم لمرة واحدة وأخيرة بماذا يجب أن أجيب المراقبين الذين يسألون عن بطاقتي»[101].

هذه الإرادة بالتحرر من العائلة ومن الموجبات الاجتماعية،

والتي نجدها من طرف إلى آخر في أعمال سارتر، يجب أن تقرب من الممارسة الفريدة لحياة خاصة تكون العائلة فيها مكونة من نوع آخر مركب من أقارب، وطلاب وأصدقاء ومعلمات، ما يمثّل الحلقة المقرّبة من الثنائي سارتر ـ بوفوار. هذا الثنائي الأسطوري الذي ومنذ العام 1930 قد صار وبالنسبة للعديد من أجيال الطلاب نموذج حياة. ثنائي غير متجانس من الناحية الطبيعية، نجده ما بين 1929 و1980 يجوب المساحات والزمان دون تعب. بكين، موسكو، القاهرة، ريو، بيلونكورت... إنهما هناك كتفاً إلى كتف. هي كبيرة، رقيقة، متأنقة إلى حد ما، ثابتة إلى حد ما في أثوابها، بعيدة عن الموضة. أما هو، فصغير، مربوع القامة، يلبس ربطة عنق أحياناً، وأكثر الأحيان مسترخ في كنبة مستعملة من طراز كندي، يدخن الغليون. لا شيء، لا شيء إطلاقاً يجعله يروي حكايات على طريقة زالدا (Zelda)، وسكوت فيتزجرالد (Scott Fitzgerald). إن الأمر يعني لنا شيئاً آخر تماماً.

إننا نبحث دون أمل عن بديل في حالة غرق، ونحاول دون توفيق أن نخترع ثنائياً جديداً من رفاق ـ عاشقين مناضلين: رغماً عنهما يقدم لنا سارتر وبوفوار خدماتهما ويعبّران عن تخيلاتنا ويصبحان أبطالنا. بالنسبة لنا، إنهما يلعبان دور ثنائي الأسطورة اللذين ولبراءتنا الجميلة قد نجحا، بعد كل شيء نجاحاً ليس عادياً: تواطؤ عاطفي كما هو سياسي، توازن وشرف في الديمومة. ونحن نبني بالتنافس صورة (Épinal) (مركز خيالي) من حياتهما المهنية؟ مخططاتهما السياسية؟ يتشابهان، يتوازنان، يتحدان: كانا طلاباً أولاً، ثم أساتذة، ثم كتّاباً محترفين، من البرجوازية الأكثر انتباهاً إلى الإغراء الشيوعي ثم إلى الماوية.

بماذا نحتفظ في ألبومنا من عائلة استبدالية؟ نصوص،

أطراف جمل، مقابلات، ما يساعدنا على إبراز هذه الصور. تفسير بمعنى ما. «سارتر، أريد أن أسألك عن...» تسأل بنشاف. أكثر طلاوة وحناناً على ما يظهر، يتمشيان ليجيب على التي يدعوها بحياء «بالقندس». التصدعات، إننا نراها بكل تأكيد، فكيف يمكن لها أن تفوتنا؟ ففي روايتها «L'Invitée» أصرت دي بوفوار أن تروي حسد إمرأة لم تكن وحيدة. التسويات، إننا نتنبأ بها، وهو يروي كفيلسوف علاقاته بالنساء: الأساسي/العرضي. رغم ما هو عابر وسريع العطب، فهما قد بيّنا هذا الرباط بين أخ وأخت يرتكبان المحارم، ثنائي لا تماثلي بدون أولاد. فهل حاولنا أن نكشف الحجاب، أن ندخل الكواليس، وماذا اكتشفنا؟ واقعاً أكثر تعقيداً، عند رؤية المراسلات المطبوعة حديثاً، والتي حافظت رغم كل شيء على الوفاء، من خلال اختراع نموذج جديد في السلوك العاطفي والإجابة على أزمة العائلة الغربية التقليدية، وهي بالتأكيد باكورة هذه العائلات التي أعيد تأليفها.

وما بين الثنائي الملك و«العائلة السارترية» ستنتظم تبادلات عاطفية، جنسية، مهنية ومالية: ذلك أن بوست (Bost) سيقوم بتبني «الأبواب المغلقة» للسينما؛ وأولغا Olga ستلعب دوراً في «الذباب»؛ ودولوراز Dolorès نظمت العدد الخاص من «الأزمنة الحديثة» حول الولايات المتحدة. ثم إن فاندا Wanda لعبت دور لني Leni في «سجناء التونا»؛ وإفلين Évelyne لعبت دور جوهانا Johanna، وميشيل Michelle ترجمت إلى الفرنسية «سيرة فرويد» ما أتاح وضع سيناريو لجون هيوستون John Huston؛ ولنزمان Lanzmann كتبت رسالة قضية الـ 121، في حين كان سارتر في البرازيل، وأرليت Arlette التي حررت نصوص محكمة روسل Russell إلخ... مبادلات فعلية، ذلك أن أعضاء «العائلة السارترية»

قد اتخذوا وظيفة «سدنة العالم» من أجل الثنائي المركزي: فانطلاقاً من بوست Bost وأولغا Olga وفاندا Wanda أيضاً عرف سارتر وبوفوار حقيقة الأجيال الشابة، تفهّماها، إلى درجة يمكننا الحديث معها عن شكل حقيقي من «اقتصاد الإنتاج الجماعي».

سارتر المدهش في مقدمته لكتاب أندريه غروز André Gorz «الخائن» «Le Traître»، قدّم نفسه عالم أنثربولوجيا ليصف العائلة الغربية التقليدية بسخرية متباعدة وبصفات تنمّ عن قوة نادرة. «يبدو أننا ما نزال نجد على هذه الأرض متوحشين حمقى، لنرى في حديثي الولادة منهم أجداداً يتجسدون ثانية. ففوق الأولاد الرضع يصار إلى تحريك الأسلحة وعقود الموتى القدامى: الكهل يبعث حياً [...] مثل هؤلاء الأهليين المتخلفين، نجدهم في جزر فيجي، وتاهيتي، وغينيا الجديدة، وفي فيينا وباريس وروما، في كل مكان نجد فيه بشراً: إننا ندعوهم أهلاً. فمنذ وقت طويل قبل ولادتنا، وقبل أن يصار إلى الوعي بنا، حدد أجدادنا شخصيتنا: فقد قالوا عنا «هو» منذ سنوات طويلة وقبل أن نبدأ بالقول «أنا». طالما تواجدنا أول الأمر بصفتنا موضوعات مطلقة، عبر عائلتنا، يقوم المجتمع بإعطائنا موقفاً، كياناً، وجملة أدوار»[102].

سارتر المدهش، الذي أدرك بوصفه مربياً وفي درس الأخلاق المفهوم التقليدي عن العائلة، إذا أشار إلى معارضتها بالنظرية الفوضوية. لنستمع إلى درسه في الأخلاق التطبيقية كما نقله جان بالادير في صف الليسيه كوندورسيه عام 1943: «المجتمعات تتغير. ما يطرح مسائل أخلاقية من أنماط مختلفة تبعاً للمجتمعات، وتبعاً للمجموعات التي ينتمي الفرد إليها (العائلة، الوظيفة، الطبقة، الوطن). تتكوّن العائلة من أفراد يرتبطون برابطة الدم ويتجمعون حول ثنائي أساسه الزواج [...] هل من الواجب

إرساء عائلة؟ ما هي واجبات المرأة؟ ما هي العلاقة بين الأهل والأولاد؟ هل علينا أن نعتبر العائلة قيّمة على المجموعة الاجتماعية تحقيقها؟

«نظرية لابلاي «Théorie Conservatrice de Le Play» المحافظة: إن الأسرة هي البنية الاجتماعية الأولى: إنها ظاهرة طبيعية، وهي ظاهرة إلهية بالنسبة للمسيحيين. لابلاي يتبع بونالد (Bonald) وأوغست كونت Auguste Comte، اللذين يعتبران الأسرة بمثابة الخلية الاجتماعية. عائلتي هي الحقيقة القصوى، ولا معنى للفرد خارج العائلة. إنها خلق إلهي، قيمة أولى، وعلى الفرد أن يحقق الأسرة. بالنسبة إلى لابلاي لا يمكن تصور أسرة فوضوية: يجب أن تسود فيها بنية تراتبية، والأب هو السلطة الأولى، والأم لا يمكن أن تكون المساوي للأب، إلا في ظل شرط إطاعته على صعيد السلطة. والأولاد بدورهم، يخضعون لسلطة الأب الذي يجسد الأسرة، وإلى سلطة الأم، بوصفها من يحل مكان الأب في حال غيابه. وبين الاثنين لا بد من قيام التراتبية، مثل حق البكر وحقوق الجنس المذكر. إنها فكرة مناوئة للثورة، تلك التي تقول، إن الفرد ليس شيئاً. إنه تصور توليفي وشمولي حول العائلة، إنها عائلة متدينة ومحافظة. يملك الأب سلطة لا نقاش فيها: لا تدخل للدولة في شؤون الأسرة [...].

النظرية الفوضوية (سترنر Stirner، راكلي Reclus، جيد Gide): إنها نظرية تشتق من النزعة التحليلية الموروثة عن الثورة الفرنسية: كل حقيقة هي عبارة عن مجموع قابل للتجزئة: المجتمع عبارة عن جملة أفراد، وثمة رابط وهمي بين الأفراد. وإخضاع الفرد للجماعة يعني إخضاع الواقع للوهمي. يجب القضاء على العائلة. يجب التمييز بين أمرين: التزاوج والأولاد الذين لا يمكن

منعهم. إذا كان ثمة من عقد، فذلك جيد، إلا أنه يجب عدم قيام الإلزام. هذا «الزواج» يجب أن يكون عقداً لا علاقة له بإرادة الأفراد. إنه الاتحاد الحر. [يجب] عدم إنجاب الاطفال إلا بناءً للإرادة والرغبة.

وللرجال حق في التعقيم. والعلاقات بين الأهل والأولاد [هي نوع] من العقد، مع ترك الحرية للأولاد. يجب تربية الولد لأننا رغبنا في إنجابه. والأولاد ليسوا ملزمين بالاعتراف بالجميل أو بالاحترام (سترنر، راكلي). يعرف جيد جداً أن الأسرة عبارة عن كلية، ولكنها بعد مرحلة ما تصبح مضرة. إن في ذلك منعاً لكل فردية أخلاقية، وبما أن كل أخلاق هي فردية، فإن ذلك يعتبر منعاً لكل أخلاق. إن من يفكر في المجموعة (عادات أو عائلة) هو لا أخلاقي. العائلة محافظة بجوهرها، وتتوق للتحرك في الماضي وتمنع الفرد من أن يتغير [...].

«استنتاج: العائلة هي تشكُّل تاريخي وليست طبيعية. إن رابطة الدم التي تبدو أساسية، لم تكن قد تكونت إلا في وقت متأخر بوصفها مؤلفة للأسرة»[103].

إننا نرى جيداً كيف تكوَّنت هذه الثقافة التي صارت عامة في جزء كبير منها عبر أجزاء متتابعة من مذكرات سيمون دي بوفوار. إذ بنت دي بوفوار نوعاً من أسطورة أسرة ـ مضادة مثالية، وقد تبين قرابة نهاية حياة سارتر أنها كانت أكثر تعقيداً وألماً وصعوبة وتفجراً مما وصفته سيمون دي بوفوار. أثناء قيامي بالاستقصاء حاولت أن ألتقي بمختلف أعضاء هذه الأسرة السارترية المضادة، وأن أستمع لشهادتها وأن أتواصل معها عن قرب. إني أصف التفاعل مع شاهد مميّز بوصفه تمريناً صعباً ولطيفاً، وهو يختلف عن الوصول إلى الأرشيفات. ذلك أن الخطوة

الناقصة مع شاهد هي التي ستقود وبسرعة إلى طريق مسدود لا يمكن تحاشيه. تنطوي مقاربة الشهود على مناورات بارعة وعلى استثمار مهم، وحركات تنمّ عن معرفة بالغير، لكنها تتطلب في الوقت نفسه استقلالية كبرى من أجل الحفاظ على الروح النقدية. ثمة لحظات مدهشة عرفتها، منها على سبيل المثال واحدة تلقيت فيها اتصالاً من بوفوار: «تعالي بسرعة، قالت، لقد وجدت شيئاً يهمك». وعلى خطوة من الباب أعطتني محاضرات سارتر غير المطبوعة، والتي ألقيت في صالة «Lyre» في هافر عام 1931. وفي هذه المخطوطات من محاضرات سارتر وجدت كتابات طويلة مخيفة، وأوراقاً تتحدث كثيراً عن علاقتها بسارتر. وفي الواقع فهي كانت، وعلى مدى ساعات وساعات من العمل المتواصل، قد ترجمت لسارتر صفحات كاملة من دوس باسوس Dos Passos وفولكنر Faulkner، وهو لم يكن يفهم لغتهما!

ومع إرليت إلكايم (Arlette Elkaïm)، طالبة شابة درست الفلسفة، وقد صارت صديقة له حتى أنه قرر أن يتبناها شرعياً في نيسان 1965، كانت العلاقات كثيفة، غنية، معمقة، كما لو كنا نبحث معاً. وحين اكتشفت صندوقاً من الوثائق غير المعروفة عن جان ـ باتيست في «Périguéux»، وكنت أهم بوضع عمل فعلي عنه، انتابني الوسواس: ألم أكن في طريقي لتوسيع تأويل يذهب عكس «الكلمات»؟ «لا، آني، أجابتني إرليت، لا تخافي من معارضة سارتر مع جان ـ باتيست!» وكانت أحلى اللحظات عندي ذلك اليوم الذي قررت فيه أن تقرأ عليّ وثائق صحيحة مثل «رواية أحلام سارتر»، أو حين أسمعتني تسجيلات على أشرطة عن سارتر الموسيقي، وهو يغني أغنية مأساوية مستوحاة من فاوست، كان ذلك في أيار 1968، وكان يكتب كتابه عن فلوبير، أو حين يقلب مخطوطة لأوركسترا «Stabat Mater de Pergolèse»، أو

حين يصاحب على القيثارة أرليت على البيانو في كتابة كونسرتو على القيثارة والأوركسترا لموزار Mozart.

وكيف لا نتوقف أيضاً عند الشهادات المؤلمة، شهادة دولوريز فانيتي Dolorès Vanetti، صديقة سارتر النيويوركية في مجده، وهي التي «أعطته أميركا» كما كان يقول، البلد الذي كان يحلم باكتشافه في طفولته ومراهقته؟ وكيف لا نصدم بذكرياتها، وهي التي، وبعد أن انقطع سارتر عن حبها، قد رفضت كل «تسوية» عرضها عليها (مال، منزل، لقاءات، مناسبات)، متهربة من قدر «محور» يدور حول «الثنائي الملك»؟ وكيف لا نعجب أو ندهش من منزلها، المنزل الذي التقت فيه سارتر أعوام 1945 و1946 مع مجموعته من الأقنعة من المحيط الهادئ الجنوبي أو كنوز أخرى كانت ملكاً لمارسيل ديشومب Marcel Duchamp، وأندريه بروتون André Breton ولكلود ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss أيضاً، وهي كانت من المقربين إليه؟

إذا جاز لنا أن نعتبر صدفة أن يكون سارتر قد نظر إلى العالم بأعين النساء، وإذا ما تذكرنا علاقته بأمه آن ـ ماري، وإذا ما اعتبرنا صياغاته الجميلة حول انجذابه لجمال النساء، الجمال الذي كان يحلم بالحصول عليه حين يكون قريباً منهن، وإذا ما استعدنا هذه العبارة من يومياته حول الحرب: «أفضل الحديث مع امرأة حول أشياء صغيرة جداً من الحديث بالفلسفة مع آرون Aron»، ولا مجال بالطبع للاقتناع بذلك. لكن النساء قد لعبن أيضاً دوراً آخر في اكتشافه للعالم: ذلك أن دولوريز فانيتي بالنسبة للولايات المتحدة هي مثل لينا زونينا Lena Zonina بالنسبة للاتحاد السوفياتي، ومثل كريستينا Cristina بالنسبة للبرازيل، ومثل توميكو أزابوكي Tomiko Asabuki بالنسبة لليابان، أو هيلين

لاسيوتاكي Hélène Lassiothakis بالنسبة لليونان، هي واحدة من هؤلاء «النسوة - البلدان» اللواتي أتحن لسارتر الإطلاع على ثقافة غريبة.

مع صدور «La Cérémonie des Adieux» عام 1981 فتحت سيمون دي بوفوار الملفات حول الصراعات الداخلية في العائلة السارترية المضادة. عائلة مضادة كانت أحياناً نموذجاً للبعض، لما نطلق عليه بعد ذلك اسم «العائلة المكافأة» لكنها العائلة التي حوت أيضاً، وكما نرى، انهياراتها الخاصة.

خاتمة

ربما أتاحت لنا العودة إلى أكثر كتب سارتر جدلاً أن نشرح العلاقات الصعبة بشكل خاص، والتي أقامها مع مثقفي بلده، والابتعاد عن الاستقبال السارتري بين فرنسا والخارج. المسألة التي أثرتها في بداية هذا العمل. فإذا ما استندنا إلى نصين مثل «تأملات في المسألة اليهودية» و«أورفيه الأسود» وإلى مقدمة «المعذبون في الأرض» لفرانز فانون Franz Fanon، أو إلى «Portrait d'un Colonisé» لألبرت مامي Albert Memmi، وإلى «Mort Sans Sepulture» أو «Les Grenouilles Qui Demandent un Roi» أو إلى نصوص صحفية أخرى تعود إلى فترة حرب الجزائر، لوجدنا أن سارتر قد واجه الأحداث التاريخية التي لا علاقة خاصة بتاريخ فرنسا وبتقاليدها وصدماتها: مثل مسألة التشارك، ومسألة الاستعمار، ومسألة التعذيب ومسألة العصيان أو التمرد. ثمة لحظات أليمة في الذاكرة الجمعية الفرنسية، وجدت البلاد صعوبة في تجاوزها: إذ ظلت لمدة طويلة دون حل، وظلت أيضاً خاضعة لعمل الرفض، أو هي اعتبرت مسائل يصعب علينا نحن حلها. فهي مسائل عولجت في الخارج وقد عادت إلينا بطريقة تحمل على الضيق، وبعد عقود من ذلك، لتعذب ضمائرنا. هذه الشبهة الفرنسية تجاه سارتر، ألا تأتي من كونه، وقد استعاد تقليداً فرنسياً عميقاً، قد طبقها على محرمات تاريخية في الذاكرة الوطنية وسط تغير في الاتجاه لا يُغتفر والذي يبدو كما لو كان خيانة؟

في مقالة حملت عنوان «الفردية والامتثالية في الولايات المتحدة»[104] يقترح سارتر تحليلاً للفرد وللدولة مقارناً بين الولايات المتحدة وفرنسا، وهو يقول بأن الرابط بين «الامتثالية الاجتماعية» و«الفردية» في فرنسا هو ما يجد الفرنسي صعوبة في فهمه عن فرنسا. بالنسبة لنا احتفظت الفردية بالشكل الكلاسيكي القديم الذي يقوم على «صراع الفرد ضد المجتمع وضد الدولة بشكل خاص». إن الأمر مختلف في أميركا. قد يعطينا هذا النص مفتاحاً لنفهم الشبهة التي أثارتها وضعية سارتر في بلده، (إن من جانب المواطن تجاه الدولة، والإنسان الوحيد تجاه المؤسسات، والمنبوذين تجاه الأغنياء).

ثمة موضوع آخر على علاقة بهذه الشبهة؟ نقتبسه من خطاباته التي تترابط وتدور حول المطالبة واستيراد نظام معايير خارجية ليست على علاقة بتقليده الخاص. من الولايات المتحدة استعار عُدَّة «حداثوية»: جاز، سينما، رواية أميركية، باسم المستقبل؛ ومن ألمانيا استعار عُدَّة الفينومينولوجيا، التي أتاحت له التفكر في اليومي بمقولات أقل صلابة مما نجده في الفكر الفرنسي.

وبفضل هذه الأدوات فقط، والمستعارة من خارج النماذج الفرنسية، استطاع سارتر أن يضع نظامه الخاص وأن يبني نهجه. وإذا كان قد ترك التدريس فلكي يعمل في مجال السيناريو عند باتي (Pathé)، ولكي يقلب مزاولة الفلسفة من خلال إدخال نماذج موروثة من اليومي، عبر تصالب وتداخل بين الفكر الأكاديمي والأمثلة المبتذلة. بعد فشل مهمته بصفته كاتب سيناريو، ابتدأ تنظيم إنتاج فكري متعدد الاتجاهات ومتعدد القوميات، يتراوح بين الشعبي ـ الأغنية، المسرح، الرواية، الصحافة ـ إلى ما هو عالمي

جداً ـ الفلسفة ـ ، ومما هو فرنسي تقليدي جداً ـ المثقف الملتزم ـ إلى ما هو خارجي جداً ـ السود، واليهود ـ مع تأملات في المسألة اليهودية، وأورفي الأسود في أعوام 1946 و1947. هذا إلى جانب نقد لقاعدة القرن التاسع عشر ـ مع بودلير، مالارميه، وفلوبير، وكل إرث جده شفايتزر، ولانسون Lanson، ومع تجذر في التقليد الفرنسي في القرن الثامن عشر، ونماذج المثقف الكوني على طريقة فولتير، وعلى طريقة ديدرو، إن سارتر قد خلط نقاط الاستدلال التاريخية وخرج على كل تصنيف.

إن تشكيكات سارتر المنظمة قد جعلت منه شخصية يصعب تصنيفها في المقولات الفرنسية التقليدية؛ مع أنه يحتفظ بوضع هامشي في مجتمع تبقى فيه الأولوية للمؤسسات الصلبة والدائمة وللمشروعية المؤسساتية. كما أن نصوصه العنيفة تجاه أسرته وتجاه جده شفايتزر هي نصوص تحمل على الغيظ. أما اهتمامه بالكائنات في حركيتها والمجموعات في صيرورتها فذلك ما يحمل على الدهشة. كذلك يحيّرنا رفضه لكل أشكال التكريم، ولكل العقائد تقريباً. كذلك تضللنا مواقفه الرافضة للسكون، وخياناته وتغيير اتجاهاته، وتناقضاته وميوله. حتى لو استعاد تراثاً معروفاً من الفرنسيين، ويقوم على التمرد، حتى لو تواجد في كل المواضع ـ المفاتيح في القرن العشرين، وقد صار فيها شخصية أسطورية، فإننا لا نغفر له ابتعاداته عن ذلك فيما بعد. إن سارتر قد خرج على مقولات الفهم التقليدية. وهو في العلم، لكنه خارج المؤسسة، أي أنه فوق الكوليج دي فرانس. إنه يملك المشروعية الأكبر، لكنه يتجاوز كل إطار؛ فكيف نغفر له ذلك؟ سارتر، أو موضوع كل الشكوك. نذكّر بتصدّيه إلى لانسون (Lanson) وديغول، وفي الولايات المتحدة تصديه لكل المحرمات التي تجعل منه مواطناً مخالفاً، مواطناً يبحث عن الريادة.

ومع ذلك فأنا أعتقد من جهتي، وكما أوضح نيقولا غريمالدي Nicolas Grimaldi عن سقراط[105]، أن سارتر كان نموذجاً وممارسة قبل أن يكون عقيدة أو أثراً. وأنه يجمع بين فولتير وهيغو وزولا وسقراط في آن واحد، بتواضعه وتجرده. وبعقله الثقافي والإمّحاء المطرد للمثقف في وظيفته النقدية الاجتماعية والسياسية وفي سلطته السحرية، بدا سارتر وكأنه الأخير في عصره.

لقد عرف كيف يربط معارف متجزئة، انطلاقاً من علمه الكلي، كما عرف أن يخلق شروط الإمكانية حتى يستطيع كل مبعد اجتماعي التفكر في علاقة السلطة بطريقة نقدية. ثم إنه حاول أخيراً - هنا يكمن مشروعه - أن يعطي الآخر الوسائل التي تشرع مشروعه الخاص، فلم يطالب انطلاقاً من علمه ومعرفته بأية سلطة، ولا أية رفعة ولا أية تراتبية. لذلك لا يجب البحث عن حقيقته في سارتر وحيد، ولا في نص واحد من نصوصه، بل في تتابع أبحاثه الطويلة، الشبيهة بما وضعه مالارميه، أي في الأبحاث المتشددة، وغير المكتملة أيضاً والمفتوحة على القراء، والتي قد تزعج البعض، وقد تكون خلاصية لبعضهم الآخر، وبل أكثر من أي وقت مضى، إنها بوصلة أخلاقية.

الهوامش

(1) (أيلول 1939 ـ آذار 1940) Carnet de la Drôle de Guerre، غاليمار 1995، ص487.

(2) المرجع السابق، ص126 ـ 127.

(3) Situations IX، غاليمار 1972، ص 9 ـ 11.

(4) Situations X، غاليمار 1976، ص91.

(5) Situations IX، ص113.

(6) المرجع السابق، ص 116 ـ 117.

(7) Les Mots، غاليمار 1963.

(8) S. de Beauvoir, La Cérémonie des Adieux, suivi des entretiens avec J.P. Sartre آب ـ أيلول 1974 غاليمار 1981، ص305.

(9) Situations X، ص133 ـ 134.

(10) المرجع السابق، ص113.

(11) المرجع السابق، ص114.

(12) Situations X، ص105.

(13) المرجع السابق، ص105.

(14) Lettres à Castor et à Quelques Autres T.I، غاليمار 1983.

(15) Presentation des Temps Modernes, Situations II، غاليمار 1948، ص12 ـ 13.

(16) المرجع السابق، ص13.

(17) Merleau- Ponty Vivant, Situations IV، غاليمار 1964 ص 206.

(18) L'Être et le Néant. Essai d'Ontologie Phénoménologique. غاليمار 1943، ص311 ـ 312.

(19) La Nausée، غاليمار 1938، ص51.

(20) E. J. Weber. La Fin des Terroirs: La Modernisation de la France Rurale, 1870 - 1914. Fayard 1983, 34.

(21) أرشيف آني كوهين ـ سولال. عن أرشيف مدام Lannes في بريغي وهي تعود على الأرجح للعام 1913، لحظة توزيع تركة الجد، الدكتور إيمارد سارتر.

(22) نقلاً عن الأرشيف المشار إليه في الهامش السابق، باريس، 22 كانون الثاني 1896.

(23) مترجم إلى الفرنسية La Fin des Terroirs.

(24) في «كتابات سارتر»، يصف كل من ميشال كوتا وميشال ريبالكا المقال بالقول إنه «انتقاد في القاعدة» غاليمار 1970، ص72.

(25) NRF عدد 35 شباط 1939 ص212 ـ 232. وقد صدر لاحقاً في Situations I غاليمار 1947.

(26) Carnets، ص231 ـ 232.

(27) Questions de Méthode، غاليمار 1960، ص22.

(28) D. Lindenberg et P.A. Meyer, Lucien Herr. Le Socialisme et Son Destin. Calmann - Levy 1977.

(29) Simone de Beauvor. la Cérémonie des Adieux وهذه الفكرة نوقشت على الصفحات من 220 إلى 250.

(30) Question de Méthode ص22.

(31) سيناريو غير منشور، «سارتر في القرن» أرشيف آني كوهين ـ سولال.

(32) يُحث هذ الفكرة من قبل C. Digeon، في La Crise Allemande de la Penseé Francaise (1870 - 1914) PUF 1959 ولكن كان لا بد من الانتظار حتى 1939 ـ 1941 إلى أن ترجم جان أيبوليت فينومينولوجيا الروح لهيغل.

(33) يجب في هذا الإطار تحديد مدلول مفهوم «الجيل الثقافي» الذي استخدمه Jean - François Sirinelli: Khagneux et Normaliens Dans l'Entre - Deux - Guerres, Fayard 1988. Deux Intellectuels dans le Siècle, Sartre et Aron, Fayard 1995.

(34) D. Lindenberg et P.A Meyer, Lucien Herr، ص269.

(35) المرجع السابق، ص269 ـ 270.

(36) A. Compagnon, La III République des Lettres, De Flaubert à Proust, le Seuil 1983, P. 95.

(37) المرجع السابق، 112.

(38) المرجع السابق، 113.

(39) Apologie Pour le Cinema, Défense et Illustration d'un Art International، كتابات الشباب، غاليمار 1990، 388 ـ 404.

(40) L'Imagination, PUF 1936، ص201 ـ 202.

(41) الروائيون الأميركيون بأعين الفرنسيين، Atlantic - Monthly vol. 178 n2. Août 1946.

(42) فكرة أساسية في فينومينولوجيا هوسرل: العالمية، NRF. N 304, 1939 P.129 - 131 وقد نشر المقال لاحقاً في Situations I غاليمار 1947.

(43) رسالة مؤرخة في 28 تشرين الأول / أكتوبر 1945.

(44) آني كوهين ـ سولال: سارتر والولايات المتحدة، وسلسلة مغامرات في أميركا، كاتالوغ سارتر في BNF غاليمار و BNF آذار 2005.

(45) سيمون دي بوفوار Cérémonie، ص332.

(46) Situations VIII غاليمار 1972، ص191.

(47) أرشيف آني كوهين ـ سولال.

(48) Situations IX 130 - 131.

(49) Situations VIII, 184 - 186.

(50) المرجع السابق، 188 ـ 190.

(51) المرجع السابق، 187.

(52) سيمون دي بوفوار ـ Cérémonie، ص570.

(53) الغثيان، ص 122.

(54) Apologie pour le Cinema, 398 - 404.

(55) الكلمات مرجع سابق، ص 98 ـ 104.

(56) المرجع السابق، 104.

(57) كتابات الشباب، ص388.

(58) المرجع السابق، 389.

(59) المرجع السابق، 391.

(60) المرجع السابق، 402 ـ 404.

(61) نيويورك، مدينة استعمارية، في Situations III غاليمار 199 ص122 ـ 123.

(62) محاضرة غير منشورة في قاعة Lyre في هافر، أرشيف آني كوهين ـ سولال.

(63) المرجع السابق.

(64) Situations I غاليمار 1947، ص 14 ـ 24.

(65) G. Heller , Un Allemand à Paris, Le Seuil 1981.

(66) G. Loiseaux, la Litterature de la Defaite et de la Collaboration, Puplication de la Sorbonne 1984.

(67) شهادة دومنيك وجان توسان ـ ديزنتي، أرشيف، سولال.

(68) راجع سولال: سارتر 1905 ـ 1980، غاليمار 1985، ص345 ـ 348.

(69) باريس تحت الاحتلال، Situations III، غاليمار 1949، ص11.

(70) أرشيف آني كوهين ـ سولال.

(71) I. Galster: Sartre, Vichy et les Intellectuels, l'Harmaton 2001 وأجوبة جاك ليكارم الرائعة في Sartre et la Question Antisémite وكذلك أجوبة جوليت سيمونت، Sartre et la Question de l'Historicité. Réflexion au - delà d'un Procès, in les Temps modernes 609 (2000) et 613 (2001) وهذا ما أغلق البحث في نظري أمام النقاش الفلسفي والتاريخي.

(72) L'Humanité 17 Avril (1980).

(73) مقدمة: Aden Arabie, de Paul Nizan Maspero 1960.

(74) M. Thorez, les Traitres au Pilori dans The Communist international N3 - 170 - 178.

(75) C. Morgan, Les Don Quichote et les Autres Guy Roblot ed. 1979. P.140.

(76) R. Garaudy, «Un Faux Prophète» Lettres Française, 28 decembre 1945.

(77) J. Kanapa, L'Existentialisme n'est pas un Humanisme, ed. Sociales 1947.

(78) G. Leclerc «Monsieur Sartre a les Mains Sales», l'Humanité 7 Avril 1948.

(79) الأزمنة الحديثة، تموز/يوليو 1952، وتشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر 1952.

(80) المرجع السابق.

(81) Le Fantôme de Staline، نشرت في الأزمنة الحديثة 1956 ثم 1957 وأعيد نشرها في Situations VII غاليمار 1965.

(82) «بعد بودابست، سارتر يتكلم»، مجلة الأكسبرس، 9 تشرين الثاني/نوفمبر 1956.

(83) P. Bourdieu, Sartre, l'Invention de l'Intellectuel Total; Liberation, 31 Mars 1983.

(84) M. Merleau - Ponty, les Aventures de la Dialectique, Gallimard, 1955 - P. 295.

(85) شهادة رولان ديماس، لقاء مع آني كوهين ـ سولال في 15 تشرين الأول/أكتوبر 1984.

(86) S. Beauvoir, La Force des Choses, I Gallimard 1963, P. 284.

(87) A. Camus, Essais, Gallimard, «Bibliothèque de la Pleiade n, 1977, P.998.

(88) Situations V, Gallimard 1964, P.42.

(89) كامو: المرجع السابق، ص999.

(90) جواب على ألبير كامو، في Situations IV 1964, 92.

(91) كامو، المرجع السابق، ص 1417 ـ 1419.

(92) Situations I, Gallimard 1947. P. 104 - 112.

(93) لقاء مع آني كوهين ـ سولال في 8 أيلول/ سبتمبر 1982.

(94) نقطة انطلاق هذا الفصل من «كامو والسياسة» إشراف جون إيف غرين L'Harmaton 1986, Guerin.

(95) سيناريو غير منشور، «سارتر في العصر» أرشيف سولال.

(96) عودة إلى الولايات المتحدة. «هذا ما تعلمته عن مسأل السود» الفيغارو الأدبية، 16 حزيران/ يونيو 1945.

(97) الوجودية مذهب إنساني Nagel 1946.

(98) «دفاع عن الثقافة الفرنسية من خلال الثقافة الأوروبية»، محاضرة ألقيت بتاريخ 24 نيسان/ أبريل 1949، في مركز الدارسات السياسية الخارجية في باريس ونشرت في Politique Etrangère، حزيران/ يونيو 1949، ص233 ـ 248. وقد تمت الاستعانة بها جزئياً من قبل ميشال كونتا وميشال ريبالكا في «Les Ecrits de Sartre» غاليمار 1970.

(99) Cahier pour une Morale, Gallimard 1983, P.89.

(100) خطاب غير منشور ألقي في جامعة يال، كانون الثاني/ يناير 1946. أرشيف سولال.

(101) Les Mots، مرجع مذكور.

(102) Situations IV, Gallimard 1964، ص54 ـ 55.

(103) حواشي محاضرات جان بالادير (أرشيف سولال).

(104) Situations III, 1949, P.84.

(105) N. Grimaldi, Socrate Le Sorcier, PUF, 2004.

معالم بيوغرافية

1905 ـ 21 حزيران مولد جان بول سارتر في باريس؛ ابناً لجان ـ باتيست سارتر، خريج هندسة من البوليتكنيك، ضابط في البحرية، ولآن ـ ماري شفايتزر، ابنة شارل شفايتزر، أستاذ مجاز بالألمانية.

1906 ـ 21 أيلول: وفاة جان ـ باتيست سارتر، في تيفييه (دوردوني).

1915 ـ دخول سارتر إلى ليسيه هنري الرابع.

1916 ـ لقاؤه مع بول نيزان.

1917 ـ تتزوج أمه مجدداً من جوزيف مانسي، ودخوله مدرسة الصبيان في لاروشيل.

1920 ـ عودة إلى ليسيه هنري الرابع تلميذاً داخلياً.

1922 ـ 1924 ـ تحضير لمباراة الدخول إلى معهد المعلمين العالي، في ليسيه Louis le Grand.

1924 ـ دخول معهد المعلمين العالي، ومن رفاقه بول نيزان، وريمون آرون.

1924 ـ 1928 سنواته في معهد المعلمين العالي. ومن كتاباته: Une Défaite, Er l'Arménien.

1928 ـ رسوبه في التأهل لتدريس الفلسفة.

1929 ـ لقاؤه مع سيمون دي بوفوار (Le «Castor»). وقد قبل في التأهل لتدريس الفلسفة وكان أولاً، وسيمون دي بوفوار حلّت ثانياً.

1929 ـ 1931 ـ جندياً في الرصد الجوي من الدرجة الثانية.

1931 ـ مدرّساً للفلسفة في ليسيه فرنسوا الأول في هافر.

1933 ـ 1934 ـ في المعهد الفرنسي في برلين. اكتشاف فينومينولوجيا هوسرل.

1938 ـ نشر كتابه «الغثيان».

1939 ـ نشر «الجدار»، و«مقدمة في نظرية العواطف».

1940 ـ يسجن في ألمانيا، وصدور «الخيالي».

1941 ـ يتحرر من معسكر الاعتقال، تأسيس «اشتراكية وحرية».

1943 ـ ظهور «الذباب» و«الوجود والعدم»، لقاء سارتر وألبير كامو.

1944 ـ ظهور «الأبواب المغلقة». تحقيقات عن تحرير باريس لجريدة «Combat».

1945 ـ صدور «طرق الحرية» (الجزءان الأول والثاني) وأول رحلة له إلى الولايات المتحدة. صدور«Le Sursis» وL'Âge de Raison، وفي تشرين الأول/أكتوبر صدور أول عدد من مجلة «الأزمنة الحديثة».

1946 ـ أول خصام له مع كامو، صدور: «الوجودية مذهب إنساني» و«موتى بلا قبور» و«تأملات في المسألة اليهودية».

1948 ـ يلتحق بـ RDR، صدور «الأيدي القذرة».

1949 ـ صدور «الموت في الروح» طرق الحرية الجزء الثالث.

1951 ـ صدور «الشيطان والإله الطيب».

1952 ـ نشاط سياسي مكثف، رحلة طريق مع الحزب الشيوعي الفرنسي، صدور «سان جينيه، الكوميدي والشهيد».

1953 ـ صدور «Kean» وصدور «قضية هنري مارتين».

1955 ـ صدور Nekrassov، رحلة إلى الصين مع سيمون دي بوفوار.

1956 ـ إدانة للتدخل السوفياتي في المجر.

1957 ـ اعتراض على التعذيب في الجزائر.

1959 ـ صدور «مسجونو آلتونا».

1960 ـ رحلة إلى كوبا، يوغسلافيا، البرازيل، ولقاء مع فيديل كاسترو، تشي غيفارا، تيتو، توقيع «بيان الـ 121» وإقامة دعوى «شبكة Jeanson».

1961 ـ مقدّمة لكتاب فرانز فانون: «معذبو الأرض».

1963 ـ صدور «الكلمات».

1964 ـ سارتر يرفض جائزة نوبل للآداب.

1966 ـ سارتر يصبح عضواً في «محكمة روسل» التي أدانت جرائم الحرب الأميركية في فيتنام.

1967 ـ رحلة إلى مصر ثم إلى إسرائيل. مقدّمة للعدد الخاص من «الأزمنة الحديثة» حول الصراع العربي الإسرائيلي.

1968 ـ مناصرة الحركة الطلابية. بداية تحريره لكتاب عن فلوبير. إدانته لتدخل قوات حلف فرصوفيا في تشيكوسلوفاكيا.

1970 ـ يأخذ الاتجاه نحو «قضية الشعب»، ويتوجه إلى عمال معامل رينو في بيلونكورت.

1971 ـ تأسيس الوكالة الصحفية Libération، وظهور الجزءين الأول والثاني عن فلوبير بعنوان «أبله العائلة».

1973 ـ ظهور العدد الأول من Libération.

1974 ـ صدور «لنا الحق بالثورة» (مع ب. غافي، وبيار فيكتور). زيارة إلى أندريا بادر المسجون في شتوتغارت.

1975 ـ التخلي عن مشروع بث تاريخي على القناة الثانية بسبب عدم الاتفاق مع المحطة التلفزيونية.

1976 ـ ظهور فيلم «سارتر بنفسه» (ألكسندر أستروك، وميشال كونتا).

1979 ـ سارتر يدعم مع ريمون آرون لجنة «مركب من أجل فيتنام».

1980 ـ 15 نيسان، وفاة سارتر في مستشفى بروسيه. وقد مشى في جنازته أكثر من 50,000 شخص.

بيبليوغرافيا

ŒUVRES DE SARTRE

L'Imagination, PUF, 1936.
La transcendance de l'ego, Vrin, 1937.
La Nausée, Gallimard, 1938.
Le Mur, Gallimard, 1939.
Esquisse d'une théorie des émotions, Hermann, 1939.
L'Imaginaire. Psychologie phénoménologique de l'imagination, Gallimard, 1940.
L'Être et le Néant. Essai d'ontologie phénoménologique, Gallimard, 1943.
Les Mouches, Gallimard, 1943.
Huis clos, Gallimard, 1944.
L'Âge de raison (Les Chemins de la liberté, I), Gallimard, 1945.
Le Sursis (Les Chemins de la liberté, II), Gallimard, 1945.
L'Existentialisme est un humanisme, Nagel, 1946.
Mort sans sépulture, Gallimard, 1946.
La Putain respectueuse, Gallimard, 1946.
Réflexion sur la question juive, Gallimard, 1946.
Baudelaire, Gallimard, 1947.
Situations I, Gallimard, 1947.
Les Jeux sont faits, Nagel, 1947.
Les Mains sales, Gallimard, 1948.
L'Engrenage, Nagel, 1948.
Situations II, Gallimard, 1948.
La Mort dans l'âme (Les Chemins de la liberté, III), Gallimard, 1949.
Situations III, Gallimard, 1949.
Entretiens sur la politique, avec la collaboration de Gérard Rosenthal et de David Rousset, Gallimard, 1949.
Le Diable et le Bon Dieu, Gallimard, 1951.
Saint Genet, comédien et martyr, Gallimard, 1952.
L'Affaire Henri Martin, Gallimard, 1953.
Kean, Gallimard, 1954.
Nekrassov, Gallimard, 1955.
Les Séquestrés d'Altona, Gallimard, 1959.
Critique de la raison dialectique, précédé de *Questions de méthode*, Gallimard, 1960.
Les Mots, Gallimard, 1963.
Qu'est-ce que la littérature ?, Gallimard, 1964 (paru pour la première fois dans *Situations II*).
Situations IV, Gallimard, 1964.
Situations V, Gallimard, 1964.
Situations VI, Gallimard, 1964.
Les Troyennes, Gallimard, 1965.
Situations VII, Gallimard, 1965.
L'Idiot de la famille, I, Gallimard, 1971.
Plaidoyer pour les intellectuels, Gallimard, 1972.

Situations VIII, Gallimard, 1972.
Situations IX, Gallimard, 1972.
L'Idiot de la famille, II, Gallimard, 1972.
Un théâtre de situations, Gallimard, 1973.
On a raison de se révolter, avec Philippe Gavi et Pierre Victor, Gallimard, 1974.
Situations X, Gallimard, 1976.

PUBLICATIONS POSTHUMES

Œuvres romanesques, édition établie par Michel Contat, Michel Rybalka, avec la collaboration de Geneviève Idt et George H. Bauer, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1981.
Carnets de la drôle de guerre (septembre 1939 - mars 1940), Gallimard, 1983.
Cahiers pour une morale, Gallimard, 1983.
Lettres au Castor et à quelques autres, t. I et II, Gallimard, 1983.
Le scénario Freud, préface de J.-B. Pontalis, Gallimard, 1984.
Critique de la raison dialectique, t. II, Gallimard, 1985.
Mallarmé, la lucidité et sa face d'ombre, Gallimard, 1986.
Vérité et existence, édition d'Arlette Elkaïm-Sartre, Gallimard, 1989.
Écrits de jeunesse, édition de Michel Contat et de Michel Rybalka avec la collaboration de Michel Sicard, Gallimard, 1990.
La Reine Albemarle ou le dernier touriste. Fragments, édition d'Arlette Elkaïm-Sartre, Gallimard, 1991.
Théâtre complet, sous la direction de Michel Contat, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 2005.

RECHERCHES SARTRIENNES

Pendant l'été 1979, à la suite du colloque « Sartre » à Cerisy-la-Salle, est né, sous l'impulsion de Geneviève Idt, de Michel Contat et de Michel Rybalka, le Groupe d'études sartriennes. Depuis cette époque, tous les ans, autour de l'anniversaire de Sartre, le 21 juin, le groupe se réunit à la Sorbonne pour deux journées de travaux. De nombreux universitaires étrangers se joignent aux débats et un bulletin, *L'Année sartrienne*, également publié à cette occasion, fait le recensement de toutes les occurrences sartriennes en France et dans le monde. De nombreuses sociétés sartriennes (États-Unis, Grande-Bretagne, Belgique, Brésil, Italie, Japon, Allemagne, etc.) permettent aux spécialistes de Sartre de développer leurs recherches et d'échanger leurs travaux de manière régulière. De nombreux sites internet sont dédiés à Sartre. Le plus important, www.jpsartre.org, recense toutes les publications et tous les événements sartriens de par le monde.

BIBLIOGRAPHIES

Contat Michel et Rybalka Michel, *Les Écrits de Sartre*, Gallimard, 1970 ; Bibliographie, Sartre, CNRS Éditions, 1980-1992, et Philosophy Documentation Center, Bowling Green State University, 1993 (complété depuis par *L'Année sartrienne*).
Lapointe François H., *Jean-Paul Sartre and his Critics. An International Bibliography, 1938-1975*, Philosophy Documentation Center, Bowling Green State University, 1975.
Wilcocks Robert, *Jean-Paul Sartre. A Bibliography of International Criticism*, University of Alberta Press, 1975.

BIOGRAPHIES ET ÉTUDES

Cohen-Solal Annie, *Sartre, 1905-1980*, Gallimard, 1985 ; « Folio », 1999 ; *Sartre*, Gallimard, « Album Pléiade », 1991 ; *Sartre, un penseur pour le XXIe siècle*, Gallimard, « Découvertes », 2005.

Contat Michel, *Passion Sartre : l'invention de la liberté*, Textuel, 2005.

Coorebyter Vincent de, *Sartre face à la phénoménologie*, Bruxelles, Ousia, 2000.

George François, *Deux études sur Sartre*, C. Bourgois, 1976.

Jeanson Francis, *Un quidam nommé Sartre*, Le Seuil, 1966 ; *Sartre par lui-même*, Le Seuil, 1955.

Lévy Benny, *Le Nom de l'homme. Dialogue avec Sartre*, Verdier, 1984.

Lévy Bernard-Henri, *Le siècle de Sartre*, Grasset, 2000 ; LGF, 2002.

Louette Jean-François, *Jean-Paul Sartre*, Hachette, 1993.

Peyre Henri, *Jean-Paul Sartre*, New York, Columbia University Press, 1968.

Philippe Gilles et Noudelmann François, *Dictionnaire Sartre*, Honoré Champion, 2004.

Renaut Alain, *Sartre, le dernier philosophe*, Grasset, 1993.

Sartre, sous la dir. de Mauricette Berne, catalogue de l'exposition « Sartre » présentée à la Bibliothèque nationale de France (8 mars - 31 août 2005), Gallimard, 2005.

Sendyk-Siegel Liliane, *Sartre. Images d'une vie*, Gallimard, 1978.

Sicard Michel, *Sartre et les arts*, Obliques, 1981.

Simont Juliette, *Jean-Paul Sartre : un demi-siècle de liberté*, Bruxelles, De Boeck Université, 1998.

Verstraeten Pierre, *Violence et éthique*, Gallimard, 1972.

أبحاث عن سارتر

صيف عام 1979، وبعد ندوة عن «سارتر» في - Cerisy - la Salle، وبدعوة من جنفياف إدت (Idt) وميشال كونتا، وميشال ريبالكا، صدرت مجموعة الدراسات السارترية. ومنذ ذلك الوقت وكل عام قرابة ذكرى ميلاد سارتر في 21 حزيران/يونيو تجتمع هذه اللجنة في السوربون ليومي عمل. يشارك العديد من الجامعيين الأجانب في هذه النقاشات ويصدر عنها نشرة باسم «L'année Sarterienne». تطبع في هذه المناسبة، وينشر فيها تلخيصات تتناول كل ما يتعلق به في فرنسا وفي العالم. ثمة العديد من المجتمعات السارترية (الولايات المتحدة، بريطانيا، بلجيكا، البرازيل، إيطاليا، اليابان وألمانيا إلخ)، التي تتيح تطور الأبحاث السارترية وتبادل الأعمال بطريقة منتظمة. كما نجد العديد من مواقع الإنترنت التي تتناول سارتر وأشهرها www.jpsarter.org وهذه تلخص كل المطبوعات وكل الأحداث السارترية من كل أنحاء العالم.

المحتويات

مقدّمة المترجم 5

تـمهيـد 9

الفصـل الأول: تيفييه، مونتريال وبرازيليا 11

الفصـل الثانـي: نحو مقاربة شاملة
للمشروع السارتري 19

الفصـل الثالـث: سيرة تكوُّن الأبله أو الخيالي
بوصفه تحديداً مفصلياً 25

الفصـل الرابـع: الخط البياني لإنتاج غير نمطي 31

الفصـل الخامـس: الإلزاس وبريفورد
أو رفض القديم 41

الفصـل السـادس: الأداة الفلسفية الكُليّة القدرة 49

الفصـل السابـع: الوريث المدمر 55

الفصـل الثامـن: استكشاف الهوامش
والثقافات الأخرى 61

الفصل التاسع: «الاعتراض طريقة الفهم الوحيدة»
مفهوم آخر في نقل المعرفة 71

الفصل العاشر: التفكير في الحديث 83

الفصل الحادي عشر: سنوات الحرب:
لا خائن ولا بطل 91

الفصل الثاني عشر: الستاليني المعتدل 99

الفصل الثالث عشر: حرب الجزائر
وبدايات مناضل العالم الثالث 111

الفصل الرابع عشر: التفكير
في مستقبل الثقافة الغربية 123

الفصل الخامس عشر: تطوير ثقافة بديلة 129

خاتمة 139

الهوامش 143

معالم بيوغرافية 149

بيبليوغرافيا 153

أبحاث عن سارتر 157